

المفكر الإسلامي  
الدكتور محمد عثمان

# مَقَامُ الْحَقِّكِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ



مكتبة وهب

## مَقَامُ الْحَقِّكِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ

- من التصوف ما هو علم للأخلاق ، وتربية النفوس ، وطب القلوب .. ومنه تصوف باطنى ، غرق فى فلسفات " الحلول والاتحاد " .. قال عنه الإمام محمد عبده : " لو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به ! " .
- ومن الصوفية مجاهدون ، حاربوا الصليبيين والتتار والاستعمار ، ونشروا الإسلام فى قلب إفريقيا ..
- .. ومنهم عملاء للاستعمار والاستبداد ، استخدموا الفكر الجبري لتطويع إرادة الأمة كى تخضع للمستعمرين والمستبدين ! ..
- ومن الصوفية أصحاب مجاهدات روحية ، سعوا على طريق " المقامات والأحوال " للفناء فى صفات الجلال والكمال والجمال لله - سبحانه وتعالى - ..
- ومنهم أهل دنيا ، يسعون على طريق الدنانير والريالات للفناء فى دواوين الملوك والرؤساء ! ..
- ومن الصوفية أهل شرع وعقل وحكمة .. ومنهم غارقون إلى الأذقان فى البدع والخرافات ! ..
- ولتميز الطيب من الخبيث .. والصالح من الظالم ، تصدر هذه الرسالة ، لإنقاذ الحيارى من كثافة الضباب الذى خيم على هذا الطريق .



3084



الدكتور  
محمّد عمار  
الفكر الإسلامي

# مَقَامُ الْعَقْلِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ

مكتبة وهبة

٤ شارع الجمهورية، القاهرة  
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

من العقبات الكبرى أمام فهم التصوف والصوفية، ومن ثمَّ أمام الموقف الموضوعي والمتوازن منهما : عقبة الخلط بين ألوان التصوف .. وعقبة الخلط بين حقيقة التصوف وبين ما عليه الكثير من « الطرق الصوفية » في الواقع الذي نعيش فيه ..

ولإلقاء الأضواء الكاشفة والمكثفة، على معالم هذه « القضية - المشكلة » نقدم هذه الإشارات والتنبيهات :

\* فالتصوف ليس نهجاً واحداً .. إذ منه « التصوف الشرعى »، الذى هو علم القلوب والسلوك والإحسان المضبوط بضوابط الشريعة وأحكامها .. وهو الذى كان عليه كبار الزهاد والأقطاب والعارفين الذين سلكوا طريق المجاهدات والرياضات الروحية، منذ عصر صحابة رسول الله ﷺ وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه .. لقد جاهدوا أنفسهم وغرائزهم وشهواتهم وكل زخارف الدنيا، حتى الكثير من حلالها وطيباتها، وصعدوا



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد  
إدارة الشؤون الفنية

عمارة، محمد

مقام العقل عند الصوفية / محمد عمارة ..

القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١١

١٠٤ صفحة، ١٤ سم

تدمك ٧ ٢١٢ ٢٢٥ ٩٧٧

١- التصوف الإسلامى .

٢- العقل .

١- العنوان .

٢٦٠

مقام العقل

عند شيخ عند الصوفية

الدكتور محمد عمارة

الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة

١٠٤ صفحة ١٤ x ٢٠ سم

رقم الإيداع ٢٠١١/٩٢٨٥٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

977-225-312-7

### تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة ( للطباعة والنشر ) . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأى وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أى نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher .

بأرواحهم على طريق «المقامات والأحوال» يستغنون القرب والفناء  
 فى صفات الجلال والكمال والجمال للذات الإلهية حتى فنى عن  
 مشاغلهم كل ما سوى الله .. ومع هذا، وفى ذات الوقت، عاشوا  
 قضايا الإسلام وأمتهم، فكانوا أئمة الجهاد الذى خاضته الأمة فى  
 مواجهة المخاطر والتحديات .. لقد أقاموا الدين فى قلوبهم  
 وسلوكهم .. وجاهدوا أعداءه فى ميادين القتال .. وقادوا الأمة فى  
 مقاومة الاستبداد وحكم التغلب والمتغلبين .. وزادوا عن حياض  
 دار الإسلام، ووسعوا دوائر انتشار هذا الدين الحنيف بالقدوة  
 والنموذج والمثال .. كانوا أئمة فى فقه الورع وفى فقه الواقع  
 والأحكام على حد سواء.

\* ومن التصوف - كذلك - لون فلسفى باطنى، غرق  
 أصحابه فى الباطنية، التى تحللت من الشريعة والأحكام  
 والتكاليف، سالكة سبيل التأويل المنفلت من ضوابط اللغة وقواعد  
 الدين .. ولقد مثل هؤلاء - فى تأريخ الأمة - نزعة شاذة، تماهت  
 مع نظائرها من النزعات الباطنية فى اللاهوت النصرانى حيناً ..  
 وفى «القبالة اليهودية» حيناً آخر .. وفى الديانات الوضعية  
 الآسيوية فى بعض الأحيان .. ولقد مثلت هذه النزعات الباطنية  
 - فى التاريخ الإسلامى - «غَبْشاً» لحق بنقاء العقائد الإسلامية،

بل ومنافذ لاختراقات «الآخر الدينى والفلسفى» لبيضة الأمة  
 وحياض دار الإسلام .. وكان ظهور هذه النزعات الباطنية - كما  
 يقول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ - ١٨٣٨ -  
 ١٨٩٧م] - بداية الانحطاط الذى أصاب حضارة الإسلام<sup>(١)</sup>.

\* أما «الطرق الصوفية»، فإنها وإن بدأ الكثير منها بدايات  
 صحيحة .. وتجديدية .. وجهادية .. إلا أن الكثير من الذين  
 توارثوها - باستثناء من عصم ربى - قد غرقت فى بحار البدع  
 والشعوذات والخرافات .. فخلطت صلاحاً قليلاً بالكثير الذى  
 أفسد العقائد عند عامة الأتباع والمريدين ..

ولقد تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ -  
 ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - الذى جمع قلب الصوفى إلى  
 عقل الفيلسوف - والذى أرجع كل ما أنعم الله به عليه إلى  
 التصوف عندما قال: «إن كل ما أنا فيه من نعمة فى دينى  
 فسببها التصوف»<sup>(٢)</sup> - تحدث عن التطور الذى لحق التصوف

(١) الأفغانى [الأعمال الكاملة] ص ١٥٨ - ١٦١ - دراسة وتحقيق:  
 الدكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨.  
 (٢) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٣ ص ٥٣١. دراسة وتحقيق:  
 الدكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

الحق، والذي انتهى به إلى المظهريات والخرافات والصياغات التي اقتربت ظواهرها من الشراكيات .. فقال :

«إنه لم يوجد في أمة من الأمم ما يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس .. وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين .. وإن سبب ما ألم بهم هو تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم، فأولئك يكفرون، وهؤلاء يعذبون ويقتلون .. حتى ظهروا بغير مظهر طائفتهم .. ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين إلى الظهور به، وهو ليس من التصوف، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلاً. وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً، حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضاً تاماً إلا ما لا نعلم.

ولقد صدر عن الصوفية كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا أن يكتب، ومنه ما يوهم «الحلول»، ولو كنت سلطاناً لضربت عنق من يقول به ..

إن علينا أن نعمل بالكتاب لأنه واضح مبين .. وبالسنة لأنها بيضاء واضحة .. وبسيرة السلف، لأنهم أعلم الناس

بهما .. وأما كلام الصوفية فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتها، وصرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل، وهذا ظاهر، فإن كتب محيي الدين بن عربي [ ٥٦٠ - ٦٣٨ هـ - ١١٦٥ م - ١٢٤٠ م ] مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله، وهذا كتاب [ الإنسان الكامل ] للشيخ عبد الكريم الجيلي ٧٦٧ - ٨٣٢ هـ - ١٣٦٥ - ١٤٢٨ م ] هو في الظاهر أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام، ولكن هذا الظاهر غير مراد، وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها.

وعندما كنت رئيساً للمطبوعات أمرت بمنع كتاب [ الفتوحات المكية ] وأمثالها، لأن أمثال هذه الكتب لا يحل النظر فيها إلا لأهلها ..

وأنا لا أنكر أن للصوفية أذواقاً خاصة وعلماء وجدانياً - بل وربما حصل في شيء من ذلك وقتاً ما - لكن هذا خاص بمن يحصل له، لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علماً. إن هذا «الذوق» يحصل للإنسان في حالة غير

طبيعية، ولكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية لا ينبغي أن يُخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية...»<sup>(١)</sup>.

هكذا تحدث الإمام محمد عبده حديث الخبير بتصوف الصوفية وفقه الفقهاء... والخبير بالتاريخ الذى تحول بالتصوف من «علم الأخلاق وتربية النفوس» إلى صياغات جهلت جماهير الطرق الصوفية حقائقها، وغابت عنها مفاتيح هذه الحقائق، ولم يبق لها منها سوى «الظواهر المملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله».

\* فالدين يؤخذ من الكتاب والسنة، ومن فهم السلف لهما، لأنهم الأعلام بهما.

\* وأذواق الصوفية حقائق، لكنها ثمرات لحالات غير طبيعية، ولذلك لا يجوز التصريح بها ولا كتابتها لمن يعيشون فى النواميس الطبيعية.

\* ولقد سطر الصوفية تراثاً امتلأت ظواهره بكثير من

---

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] . ج ٣ ص ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣١

المخالفات العقدية، ولذلك وجب حجب هذا التراث عن الذين لا يملكون مفاتيح معرفة حقائق هذه الظواهر... ولأن هذا لم يحدث، فلقد شاع فى أوساط «الطرق الصوفية» من العقائد والمقولات ما جعل الفقهاء يخوضون صراعاً طويلاً مع الصوفية... حوله الأمراء إلى صراع دام فى كثير من الأحيان... الأمر الذى ألجأ الصوفية إلى أسرار ورموز زادت حقل التصوف غموضاً ولبلة واضطراباً... الأمر الذى باعد بين هذه الطرق الصوفية وبين حقيقة التصوف كعلم للأخلاق وتربية النفوس.

هكذا تحدث الفيلسوف الصوفى - الإمام محمد عبده - فشخص هذه «القضية - المشكلة» تشخيصاً عبقرياً.

\* \* \*

ولقد زاد الطين بلة - فى واقعنا الحديث والمعاصر - غواية المستعمرين والحكام المستبدين لكثير من «الطرق الصوفية»، حتى تحولوا عن سنن الأسلاف - الذين ينتسبون إليهم - تحولاً كبيراً...

\* ففى الجزائر - مثلاً - كان الأمير عبدالقادر الجزائرى

[١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ - ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م] قطباً من أقطاب

التصوف، ومريداً لمحيى الدين بن عربي .. ولقد قاد الجهاد الإسلامي والنضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي قرابة العشرين عاماً .. لكن «الطرقية» الذين خلفوا من بعده سقطوا في غواية الاستعمار الفرنسي، الذي أراد طي صفحة العروبة والإسلام في الجزائر، وفرنسة الجزائريين .. حتى لقد أعلن العزم على تشييع جنازة الإسلام بالجزائر، وتحويلها إلى مهد لحضارة روحها الإنجيل ..! ومع ذلك، خان «الطرقية» عروبتهم وإسلامهم ووطنهم، ودعوا إلى الاستسلام لسياسة الاستعمار، زاعمين أنها إرادة الله! .. وقالوا :

«إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً، ولكنه - كما ترون - يمدّهم بالقوة، وهي مظهر قدرته الإلهية، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته»<sup>(١)</sup>!

(١) مجلة [الشهاب] - الجزائرية - ج ٧ مجلد ١٤ - وهي تنقل عن جريدة «الريبيليكان» - الفرنسية - عدد ٢٢-٦-١٩٣٨م - وانظر كتابنا [مسلمون ثوار] ص ٤٨١ طبعة دار الشروق - القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.

ولم يكتف «الطرقية» - الجزائريون - بهذا الإفك وهذه الخيانة للإسلام ولتراث التصوف وجهاد المتصوفة، وإنما وقفوا مع الاستعمار الفرنسي يحاربون الحركة الإصلاحية التي قادتها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» - التي أسسها الإمامان عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] والبشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] .

\* وبعد أن كان تراث الصوفية وتاريخهم قد وضع أقطابهم في أحضان الأمة، يقودون ثورات الفقراء والمستضعفين - حتى لقد اشتهروا بلقب «الفقراء» - .. ويزحفون مع هؤلاء الفقراء لجهاد الغزاة - من الصليبيين والتتار والأمبريالية الأوربية في العصر الحديث - .. بعد أن كان الحال كذلك، رأينا - في واقعنا الحديث والمعاصر - بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] - الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر والشرق - ١٧٩٨م - يجتذب إلى حبال غوايته الاستعمارية - مع قطاعات كبيرة من الأقليات النصرانية - قطاعات من أرباب «الطرق الصوفية» .. فاحتفلوا معه بالمولد النبوي الشريف .. وروجوا لأكذوبة إسلام بونابرت لدى عوام المريدين! ..

\* كما رأينا - فى واقعنا الراهن - تقرير «مؤسسة راند» الأمريكية يشير على صانع القرار الأمريكى باحتضان «الطرق الصوفية»، لأن عداءهم للإسلام الجهادى والسياسى، يجعلهم حلفاء للأمبريالية الأمريكية.. ولما بين باطنيتهم وبين النصرانية الغربية من وشائج وصلات!!.. ولذلك، رأينا سفراء أمريكا - بمصر مثلاً - ضيوفاً دائمين على موائد «شيوخ الطرق الصوفية» فى «موالد» أولياء الله الصالحين!!..

\* وبعد أن كان الزهد جامعاً يجمع أقطاب الصوفية على مر تاريخ الإسلام، رأينا - فى واقعنا المعاصر - «مشايخ للطرق» يعيشون حياة الترف والبذخ والإسراف، ويمدون أيديهم إلى سحت النظم المستبدة - الآتى من الشرق والغرب -.. وفى مقابل هذا السحت يروجون - بالكتب والمقالات - لدعوات مجنونة، ينادى بعضها بإحياء الدولة الفاطمية - التى كانت تكتب لعن الخلفاء الراشدين والصحابة على المنابر والمحاريب بحروف من ذهب! -.. كما تدافع - هذه الكتب والمقالات - عن «التشييع الصفوى»، الذى تحالف مع الصليبية والصهيونية

على الغزو والتدمير للعراق وأفغانستان!.. كما تفتري - هذه «الطرق» - لقاء هذا السحت - على رموز إسلامية جمعت بين الجهاد والاجتهاد والتجديد - من مثل شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] الذى وصفه الإمام محمد عبده بأنه «أعلم الناس بالسنة، وأشدّهم غيرة على الدين»<sup>(١)</sup>.. فجاء شيوخ هذه «الطرق» - لقاء هذا السحت الذى يتمرغون فيه - ليقولوا عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إنه جاهل بأصول الدين جهلاً مركباً. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله، وهو لا يشعر.. وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ وصاحب حكم فاجر.. وملبس وكذاب وجبان. وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد»<sup>(٢)</sup>!!

(١) [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٣٥٩ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.  
(٢) [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٥٦، ٦٦، ٦٧. من إصدارات «مركز أبحاث الطريقة العزمية». طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦ هـ سنة ٢٠٠٥ م. وانظر كتابنا [فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية] طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣٠ هـ سنة ٢٠٠٩ م.



\* وبعد أن كان الصوفية الأوائل يسعون - على طريق  
«المقامات والأحوال» - إلى الفناء فى صفات الذات الإلهية ..  
رأينا «الطرقية» المعاصرين يسعون على طريق التبعية لحكام الفساد  
والاستبداد .. فأصبحت «مشيخات الطرق الصوفية» تابعة وذائبة  
فى دواوين الملوك ورؤساء الجمهوريات! ..

\* \* \*

تلك إشارات - مجرد إشارات - لنماذج - مجرد نماذج -  
للانحطاط والضللال اللذين أصابا بعض الطرق الصوفية فى واقعنا  
الحديث والمعاصر، فباعد بينها وبين حقيقة التصوف وسيرة  
المتصوفة الحقيقيين .. وأغرقها فى الشعوذة والخرافات  
والضلالات حتى الأذقان! .. حتى لقد بات هذا الحقل من حقول  
الواقع الإسلامى المعاصر مليئاً بالمقولات والممارسات التى اختلط  
فيها الصلاح بالفساد، والهدى بالضللال .. الأمر الذى جعل من  
أهم الفرائض الفكرية - فى واقعنا الراهن - العمل على ترشيد  
الواقع الصوفى المعاصر، بالعودة إلى حقيقة التصوف ..  
وحقيقة المتصوفة العظام فى تاريخ حضارة الإسلام .

- التصوف، الذى وصفه الإمام محمد عبده بأنه «علم  
الأخلاق وتربية النفوس» .

- والصوفية ، الذين جمعوا بالوسطية الإسلامية - بين  
العقل والقلب .. وعاشوا فى أحضان الأمة ، ينتصرون للحرية  
على الاستبداد .. وللفقراء على المسرفين .. وللحق على  
الباطل .. وللهدى على الضلال .

\* \* \*

ولأن المقام - فى هذه الدراسة - هو مقام تقديم النماذج  
وضرب الأمثال، لترشيد الواقع وتصحيح المسار - آثرنا الوقوف -  
هنا - عند تقديم نموذجين من أعظم نماذج الصوفية والتصوف فى  
تراث الإسلام .. جمع كل واحد منهما بين الهدايات الأربع :  
- هدايات النقل والعقل والتجربة والوجدان .. فكان للعقل فى  
تصوفهما المكان البارز الذى نafs مكانه عند الفلاسفة والحكماء  
العظام .

\* نموذج : الصوفى .. السلفى .. الفيلسوف الحارث  
ابن أسد المحاسبى [ ١٦٥ - ٢٤٣ هـ ٧٨١ - ٨٥٧ م ] .



\* ونموذج: الصوفى .. الفيلسوف .. الفقيه .. الأصولى  
حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [ ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ -  
١١١١ م ].

سائلين الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل من هذا الكتاب  
عامل ترشيد وإرشاد ورشاد للواقع الفكرى الذى نعيش فيه ..  
وذلك حتى تجمع ثقافتنا الإسلامية المعاصرة بين هدايات :  
العقل .. والنقل .. والتجربة .. والوجدان .. وحتى تكون خطرات  
القلوب مرطبة لحسابات العقول .. وتكون حسابات العقول موقظة  
وضابطة لخطرات القلوب .. وحتى تبرأ ساحتنا الفكرية من الفصام  
النكد بين أهل القلوب وأهل العقول .. هذا الفصام الذى أفرز  
- فى واقعنا الفكرى - : خبراء لا قلوب لهم .. ومتصوفة مجردين  
من العقول ! .. والله من وراء القصد .. إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور

محمد عمارة

١٥ جماد أول سنة ١٤٣٢ هـ

١٨ إبريل سنة ٢٠١١ م

## ( ١ ) الحارث بن أسد المحاسبى ( ١٦٥ - ٢٤٣ هـ = ٧٨١ - ٨٥٧ م )

الذى تميزت مسيرته الفكرية والروحية عندما جمعت بين  
علم الأصول .. والنزعة السلفية .. والكلام .. والتفلسف ..  
والفقه .. والتصوف .. فجعلت لكلامه عن العقل والعقلانية  
شمولاً .. ومذاقاً خاصاً ..

لقد ولد الحارث بالبصرة .. ومات ببغداد .. وكان واحداً  
من كبار الزهاد والمتصوفة فى عصره .. كما كان واعظاً مبكياً  
لسامعيه .

ومع انتصاره للعقل والعقلانية - حتى لقد خص  
العقل بالتأليف فيه - فلقد كان ناقداً للمعتزلة - فى عصر علا فيه  
شأن المعتزلة وسلطانهم - كما خالف الإمام أحمد بن حنبل  
[ ١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٧٨٠ - ٨٥٥ م ] الذى كان زعيم السلفية ،  
وأكبر خصوم الاعتزال ..

ولقد كان الحارث - مع كل هذا - أستاذاً لجمهرة علماء



بغداد في ذلك العصر الذي كانت فيه بغداد حاضرة العلم  
والعلماء في الدنيا كلها، بتعميم وإطلاق...

ومن الآثار الفكرية التي بقيت لنا من إبداعات الحارث  
المحاسبي - غير كتابه عن [مائية العقل ومعناه واختلاف الناس

فيه] - كتب ورسائل :

١ - [آداب النفوس].

٢ - [شرح المعرفة].

٣ - [المسائل في أعمال القلوب والجوارح].

٤ - [المسائل في الزهد وغيره].

٥ - [البعث والنشور].

٦ - [الرعاية لحقوق الله عز وجل].

\* \* \*

## نصوص في مقام العقل عند الحارث المحاسبي

### عونك اللهم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي  
البصري رحمة الله عليه :

باب ماهية العقل وحقيقة معناه<sup>(١)</sup>.

سألت : عن العقل ما هو ؟

وإنني أرجع إليك في اللغة، والمعقول من الكتاب والسنة،  
وتراجع العلماء ( فيما ) بينهم بالتسمية، ثلاثة ( معاني ) :  
أحدها : هو معناه، لا معنى له غيره في الحقيقة.

(١) لقد اعتمدنا النص كما حققه الأستاذ حسين القوتلي - انظر كتابه  
[العقل وفهم القرآن] ص ٢٠١ - ٢٣٨ طبعة بيروت - دار الكندي  
ودار الفكر - الطبعة الثانية - سنة ١٣٩٨ هـ سنة ١٩٧٨ م .. ولقد  
تخففنا من الهوامش التي لا ضرورة لها.



والآخِران اسمان جَوَزَتْهُمَا العربُ إذ كانا عنه فعلاً،  
لا يكونان إلا به ومنه، وقد سَمَّاها الله تعالى في كتابه وسمَّتها  
الْعُلَمَاءُ عَقْلاً.

فأما ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره: فهو غريزةٌ  
وضَعَهَا الله سبحانه في أكثرِ خَلْقِهِ لم يَطَّلِعْ عليها العبادُ  
بعضُهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية،  
ولا بحسٍّ، ولا ذوقٍ، ولا طَعْمٍ. وإنما عَرَفَهُم الله (إياها) بالعقل  
منه.

فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه  
به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.  
فَمَنْ عَرَفَ ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه، عرف أن الله  
تعالى قد منَّ عليه. بالعقل الذي سلب أهل الجنون وأهل التيه،  
وسلب أكثره الحمقى، الذين قَلَّتْ عقولهم.

وكذلك معرفة بعضهم من بعض بظاهرِ فعلِ الجوارح.

فَيُسْتَدَلُّ أنه عاقل له عقل إذا رَأَوْا من أفعاله ما يدلُّهم أنه  
قد عَرَفَ ما ينفعه من دنياه وما يضره؛ إذا رَأَوْه طالباً عاملاً

ما ينفعه من دنياه مُجَانِباً لما يضره من دنياه. فسموا من كان  
كذلك عاقلاً وشهدوا أن له عقلاً وأنه لا مجنون، ولا تايه  
ولا أحمق.

فإن رَأَوْه بخلاف ذلك شَهِدُوا أنه مجنونٌ قد (تَغَشَّا) عقله  
من الآفة ما أذهله، وأزال معرفته بمنافعه ومضاره.

فإن رَأَوْه يتبعُ منافعَهُ، ويُجَانِبُ مضارَّهُ، وفي كثيرٍ من أفعاله  
يعملُ بخلاف ذلك سَمَّوهُ علي قَدْرِ الكثرة بخلاف ما يفعلُ  
العاقلون أو لقلته أحمق أو مائقاً<sup>(١)</sup>.

فإن كان له وقتٌ تَزُولُ أفعالُ العقل عنه بِصَعَقٍ، أو تَقَلُّبٍ  
للأمور في القول والفعل سَمَّوهُ مجنوناً في ذلك الوقت، عاقلاً إذا  
أفاق، وتجلَّى ذلك عنه، وعاد لهيئته الأولى، من أن تَظْهَرَ منه  
أفعالُ العقل واللبِّ بأسباب ذلك.

إذا سئل أجاب بما يُعقل. ويطلب منافعَهُ ويجتنب مضارَّهُ.  
وربما تعرض لما يضره في العواقب، وذلك نافعٌ له في العاجل، ضارٌّ  
له في الآخرة، فَيُسَمَّى عاقلاً. يعنون أن له الغريزة التي هي ضد

(١) المائق: الهالك حمقاً وغباًوة.



الحمق والجنون، وأنه قد نقص عقله للعاقبة بقدر ما تعرض لما  
ينفعه في العاجل بما يضره في العاقبة.

فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من  
عباده، أقام به على البالغين للحلم الحجة. وإياهم خاطب من  
قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى، وحضّ وندب. فهو  
غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح. لا يقدر أحد أن  
يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله.

لا يقدر أن يصفه بجسمية، ولا بطول، ولا بعرض،  
ولا طعم، ولا شم، ولا مجسة، ولا لون، ولا يعرف إلا بأفعاله.  
وقال قوم من المتكلمين: هو صفوة الروح، أي خالص الروح.

واحتجوا باللغة فقالوا: لب كل شيء خالصه. فمن أجل  
ذلك سُمي العقل لباً. وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا  
الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] يعني أولى العقول.

ولا نقول ذلك إذا لم نجد فيه كتاباً مسطوراً، ولا حديثاً  
مأثوراً.

وقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة، يبصر به،  
ويعبر به.

نور في القلب كالنور في العين، وهو البصر.

فالعقل نور في القلب، والبصر نور في العين.

فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد  
معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول.

وقد زعم قوم أن العقل معرفة نظمها الله ووضعها في عباده  
يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار.

والذي هو عندنا أنه غريزة، والمعرفة عنه تكون.

وكذلك الجنون والحمق لا يسمى نكرة لأنه لو كان المعرفة  
هو العقل، سُمي الجنون نكرة، والحمق نكرة، لأن النكرة ضد  
المعرفة، والجهل ضد العلم.

فلما امتنع أهل العلم أن يسموا المجنون منكراً جاهلاً،  
ولا يسمون المنكر مجنوناً، والجاهل مجنوناً، وقالوا بأنه مجنون،  
صح ما قلناه.

ومما يدل على أن العقل هو الغريزة التي (بها) عرف فأقر،  
وعرف فأنكر، أو ظن فأنكر، لأن الإنكار فعل، فكذلك ضد  
المعرفة فعل.

فمنه فعل عن طبع يوجب الطبع (كالضرة)<sup>(١)</sup>؛ كمعرفة الرجل نفسه، وأباه، وأمه، والسماء، والأرض، وجميع الأشياء التي تُشاهد.

ولولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من أسماء الأشياء ثم رأى الأشياء، لعرفها برؤيا ولم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها.

أو لم تستمع إلى ما وصف الله تعالى ملائكته؛ إذ سألهم أن يُخبروه بأسماء الأشياء فقالوا: لا علم لنا. فأمر آدم عليه السلام فأخبرهم<sup>(٢)</sup> بها لأنه علّمه الأشياء؟

فلم يعرف عاقل أسماء الأشياء إلا بالتعليم منذ هو طفل لما يسمع ويرى. عرف بعقله الأشياء، وفصل بين معانيها.

فكلُّ بالغٍ من الجنِّ والإنس من الذكور والإناث ممن أمره الله تعالى ونهاه ووعدّه وتوعّدّه بإرسال النذر، وإنزال الكتب،

(١) يقصد الضرورة. يعنى أن هذه المعرفة تأتي نتيجة ضرورة لكون العقل غريزة.

(٢) يريد الإشارة إلى الآية ٤٣ من سورة البقرة.

وآثار آيات التدبير، فحجة العقل لازمة له، إذ أنعم الله سبحانه بالعقل عليه، ومعرفة البيان ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].  
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]

أو لا تراه يقول عز وجل ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ يعنى بينا لهم ما (يعقلوه) بعقولهم إن تدبروا ذلك. فقال عز وجل: ﴿فَاسْتَجَبُوا أَعْمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

فإنما خاطب الله العباد من قبل ألبابهم، واحتج عليهم بما ركب فيهم من عقولهم؛ وما الله بظلام للعبيد.

ومع هذا فإنه قد يخص بالتنبيه والتوفيق من يشاء من عباده، ويختص بجواره من أحب من خلقه.

إلا أن أبين الأشياء هذه قبل الجهر باللسان. فإنه قال عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وهذا قبل أن يخبره.



وقال خالد بن صفوان<sup>(١)</sup>: لولا التبيان لكان المرء بهيمة  
مهملة أو صورة ممثلة.

وقال الشاعر:

وفي الصمت ستر العي يوماً وإنما

صحيفة لب المرء أن يتكلما

وأما الاثنان اللتان جَوَزَتْهُمَا اللُّغَةُ في الكتاب، والسنة،  
وتراجع أهل المعرفة، فيما بينهم بالتسمية فجَوَزَتْهُمَا اللُّغَةُ على  
حقيقة المعنى بأن سَمَّتَهُمَا عقلاً، إذ كانا عن العقل لا عن غيره.

فإحداهما: الفهم لإصابة المعنى؛ وهو البیان لكل ما سَمِعَ  
من الدنيا والدين أو مَسَّ أو ذاق، أو شَمَّ؛ فسمَّاهُ الخلقُ عقلاً،  
وسمَّوا فاعلهُ عقلاً.

وقد روى في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه  
السلام: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] قيل: اعقل ما أقول  
لك.

(١) أحد خطباء العرب وبلغائهم المعروفين. له أخبار مع هشام  
ابن عبد الملك وأبى العباس السفاح.

وهذه خصلةٌ يشترك فيها أهلُ غريزة العقل التي خلقها الله  
فيهم، من أهل الهدى، وأهل الضلالة، من بعض أهل الكتاب لما  
تقدَّم عندهم من أهل الدين.

ويجتمعُ عليها أهلُ كُلِّ إيمانٍ وضلالٍ في أمور الدنيا خاصة،  
والمطيع والعاصي، وهو فهمُ البيان.

وقال الله عز وجل في ما يعيبُ به أهل الكتاب، فقال:  
﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾  
[البقرة: ٧٥]

وقال عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

[البقرة: ١٤٦]

وقال: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]

فالفهم والبيان يُسمَّى عقلاً لأنه عن العقل كان

فيقول الرجل للرجل:

أعقلتَ ما رأيتَ أو سمعتَ؟

فيقول نعم . يعنى أنى قد فهمت وتبينت .

والعرب إنما سمّت الفهم عقلاً لأن ما فهمته فقد قيّدته بعقلك وضبطته كما البعير قد عُقِلَ . (أى) أنك قد قيّدت ساقه إلى فخذيه .

وقالوا : اعتقل لسان فلان ، أى استمسك .

ويقال اعقل شاتك إذا (حبستها) . وهو أن يضع (رجله) بين (نوفها) وفخذ (ها) ، و(يقال) : اعتقل رجل فلاناً إذا (صارعه) .

والمعنى الثالث : هو البصيرة ، والمعرفة . بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة فى الدنيا والآخرة . ومنه العقل عن الله تعالى .

فمن ذلك أن تعظم معرفته وبصيرته بعظيم قدر الله تعالى وبقدر نعمه وإحسانه ، وبِعَظِيمِ قَدْرِ ثوابه وعِقَابِهِ لينال به النجاة من العقاب ، والظفر بالثواب .

فإذا كان لله مُعَظِّمًا ، كان لله مُجَلًّا هايبًا ، وإذا كان لله مُجَلًّا هايبًا كان منه مُسْتَحِيًّا ، وإلى طاعته مُسَارِعًا ، ولمساخطه مُجَانِبًا . وإذا كان مُعَظِّمًا لما ينال به النجاة من العقاب والظفر

بالثواب عُنِيَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَرَغِبَ فِي الْفَهْمِ . وَالْعَقْلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَكْثَرُ هِمَّتِهِ .

وإذا عُنِيَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ الْمَوْلَى وَقَدْرِ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ . وَإِذَا اسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَبْصَرَ وَفَهُمَ حَقَائِقَ مَعَانِي الْبَيَانِ . فَإِذَا فَهِمَ عَقْلَ عَظِيمِ قَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَرَضَهُ عَلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَعِقَابَهُ وَثَوَابَهُ .

وإذا عَظَّمَ قَدْرَ ذَلِكَ هَابَ اللَّهُ ، وَفَرَّقَ وَرَجَا ، وَرَغِبَ وَاشْتَقَّ ، فَكَأَنَّمَا يُعَايِنُ ذَلِكَ كَرَأَى الْعَيْنِ ، فَكَانَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى عَاقِلًا ، وَسُمِّيَ ذَلِكَ مِنْهُ عَقْلًا ، إِذْ كَانَ بِالْعَقْلِ طَلَبَ ذَلِكَ ، وَبِالْعَقْلِ فَهِمَ ذَلِكَ ، وَبِالْعَقْلِ لَزِمَ ذَلِكَ ، وَبِالْعَقْلِ جَانِبَ مَا يَزِيلُهُ عَنْ ذَلِكَ .

فهذا الذى عقل عن ربه .

أَلَمْ تَسْمَعْهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٢] ؟ قَالَ : أُذُنٌ عَقَلْتُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى . يَعْنِي عَقْلَ عَنِ اللَّهِ مَا سَمِعْتُ أُذُنَاهُ ، مِمَّا قَالَ وَأَخْبَرَ .

فهذا هو العقل .

وَمَنْ زَالَ عَنِ ذَلِكَ وَمَعَهُ غَرِيزَةُ الْعَقْلِ الَّتِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا



بين العقلاء والمجانين فهو غير عاقلٍ عن الله عزَّ وجلَّ . وهو عاقلٌ  
للبيان الذي لزمته من أجله الحجة .

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ هذا في كتابه عن رجال (وسمًا)  
لهم عقلاً . فقال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج : ٤٦]  
يعنى عنه .

وقال عز وجل : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ .  
يعنى عقولاً ، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ  
مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف : ٢٦] . ثم  
سمي بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلاً للبيان الذي لزمته به  
الحجة ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٧٥] .

فأخبر أنهم لا يعقلون ، يعنى عنه (وعن) ما قال من عظيم  
قدره المبين عنه .

ثم قال : ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعنى :  
عقل البيان .

وآخرون لهم عقول الغرايز لا يعقلون البيان ولا المبين عنه  
بالفهم له إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاماً لا يعقلون معانيه

بالفهم له كمشركى العرب فقال : ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ  
أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤] .

فلم يعقلوا ما قال عزَّ وجلَّ لإعجابهم برأيهم ، ولتقليدهم  
آباءهم ، وكبراءهم ، وقد كانت لهم عقول غرايز ، يعقلون بها أمر  
دنياهم .

ولو تركوا الإعجاب بالرأى ، وتقليد الكبراء ثم تدبروا  
لعقلوا ما قال الله . ولكن أعجبوا بآرائهم ، وقلدوا كبراءهم . فقال  
عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

[الكهف : ١٠٤]

وقال جل ثناؤه : ﴿أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾

[فاطر : ٨]

وقال : ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

[المجادلة : ١٨]

فلم يعقلوا ما قيل لهم كما عقله المحرفون للسان بعدما  
عقلوه فهم يعلمون أمر دنياهم .

ودقائق معاشيهم أدق في الغموض من أعلام الدين . فقال

الله عز وجل : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ٧] .

قال : حدثني عفان<sup>(١)</sup> ، قال : حدثنا صخر بن جويرية<sup>(٢)</sup> عن الحسن<sup>(٣)</sup> في قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال : لا جرم والله لقد بلغ من علم أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفريه ويخبرك بوزنه ، وما يحسن يوصل .

قال : حدثني عفان قال : حدثنا شعبة<sup>(٤)</sup> عن شريقي<sup>(٥)</sup> في قوله : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فذكر الخراز والخياط ونحوهما ، فأخبر الله تعالى أنهم يعقلون أمر دنياهم . ولو تدبروا وتركوا التقليد والإعجاب بالآراء لعقلوا أمر آخرتهم كما عقلوا أمر دنياهم ، حين عنوا بطلب منافعها في العواقب ودفع مضارها في العواقب .

(١) عفان بن مسلم الصفار (١٣٤ - ٢٢٠ هـ من شيوخ المحاسبى) .  
(٢) أبو نافع صخر بن جويرية ، مولى بنى تميم .  
(٣) هو الحسن البصرى (٢١ - ١١٠ هـ) .  
(٤) شعبة بن الحجاج (٨٢ - ١٦٠ هـ) الأزدي البصرى .  
(٥) شريقي بن قطامي : أخبارى .

فهذه أربع فرق :

فرقة عقلت عن الله تعالى عظم قدره وقدرته وما وعد وتوعد ، فأطاعت ، وخشعت .

وفرقة عقلت البيان ثم جحدت كبراً وعناداً لطلب الدنيا كما وصف عن إبليس أنه تكبر وعاند كبراً ، وهو مع ذلك يقول : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] . ووصف اليهود فقال : ﴿لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقال : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤]

وقال : ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

[الأنعام : ١١٤]

وقال : ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

[آل عمران : ١٨٧]

وفرقة طغت ، وأعجبت ، وقلدت ، فعميت عن الحق أن تتبينه ثم تقر به ، ثم تجحده كبراً وطلب دنيا بعد عقلها للبيان فظنت أنها على حق ودين وهي على باطل وشر وضلال .



وفرقه رابعة عقلت قدر الله عز وجل في تدبيره وتفردته بالصنع، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به، وقدر العقاب في ضرره في مُجانبَةِ الإيمان، فلم يجحدوا كبراً ولا أنفة ولا طلب دنيا لعقلها أن عاجل الدنيا يفنى، وعذاب الآخرة لا يفنى. فأقرت وآمنت، ولم تعقل عظيم قدر الله في هيبتِه وجلالِه، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في إتيان معاصيه، والقيام بفرايضه، فعصت، وضيعت، وغفلت، ونسيت، إلا أنها علمت عظيم قدر الإيمان في النجاة، وعظيم ضرر الكفر؛ قد عقلته عن الله تعالى فهي قائمة به، دائمة عليه.

ثم بعد عقله قدر الإيمان يزداد معرفة بقدر الغضب والوعيد والوعد.

فإن ازداد طائفة قام بطائفة من الفروض، وترك بعض المعاصي، وإلا ضيع بعض الفروض، وركب بعض المعاصي من أجل الهوى، ومعه عقل البيان والإقرار، فعقل أنه مُسِيء، ولم يرجع عن إساءته لغلبة الهوى.

ولو ازداد عقلاً بعظيم قدر الغضب، والرضى، والثواب، والعقاب، لاستعمل ما عقل من البيان، وأقر به بأنه حق فتاب وأتاب.

وجميع المتحنيين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها، الجليل، والدقيق، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون.

ألم تسمعه عز وجل يقول: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وقال جل ثناؤه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهم بالدنيا أهل بصر وسمع وعقل، ولم يعن أنهم صم، خرس، مجانين، وإنما عذبهم لأنهم يعقلون لو تدبروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه من آيات الكتاب، وآثار الصنعة، واتصال التدبير، الذي يدل عليه أنه واحد لا شريك له.

وحكى تعالى قول أهل النار فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقد كانت لهم عقول وأسماع لزمتهم بها الحجة لله عز وجل.

وإنما عنى عز وجل أنها لم تعقل عن الله فهما لما قال من

عَظِيمٍ قَدْرٍ عَذَابِهِ، فَنَدِمْتُ، وَنَادَتُ بِالْوَيْلِ وَالنَّدَمِ لَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ، وَلَا كَانُوا بِمَجَانِبِينَ، وَلَكِنْ يَعْقِلُونَ أَمْرَ الدُّنْيَا، وَلَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ وَوَعَدَ وَتَوَعَّدَ.

قلت<sup>(١)</sup>: فَمَتَى يُسَمَّى الرَّجُلُ عَاقِلًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؟

قال: إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا خَائِفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والدليلُ على ذلك أن يكونَ قائمًا بأمرِ الله الذي أوجبَ عليه القيامَ به، مُجَانِبًا لِمَا كَرِهَ وَنَهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّى عَاقِلًا عَنِ اللَّهِ.

بل لأنه لَا يُسَمَّى عَاقِلًا عَنِ اللَّهِ مَنْ يَعِزُّ عَلَى الْقِيَامِ بِسُخْطِهِ فَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ مُصِرًّا غَيْرَ تَائِبٍ.

قلت: فَمَتَى يُسَمَّى الْعَاقِلُ عَنِ اللَّهِ كَامِلَ الْعَقْلِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؟

قال: إِنَّ الْعَقْلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَا غَايَةَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا غَايَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ الْعَاقِلِ بِالتَّحْدِيدِ، بِالإِحَاطَةِ بِالْعِلْمِ بِحَقَائِقِ صِفَاتِهِ، وَلَا بِعَظِيمِ قَدْرِ ثَوَابِهِ وَلَا بِعِقَابِهِ إِذْ لَمْ يَعَايِنَهَا.

(١) يرجح المحقق أن السائل هو الجنيد.

ولو عاين الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ بِصِفَاتِهِ لِمَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا.

ولكن، وَقَدْ يَقَعُ اسْمُ الْكَمَالِ عَلَى الْأَغْلَبِ فِي الْأَسْمَاءِ فِي الْعَقْلِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَا الْعَقْلَ بِالْكَمَالِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ.

أَلَا تَرَاهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

[طه: ١١٠]

وَرَوَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهَا تَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «رَبُّ مَا عَبْدُنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ».

فَلَا أَحَدٌ يَسَاوِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعِلْمِ بِنَفْسِهِ فَيَعْرِفَ عَنِ عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَالَ صِفَاتِهِ كَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ.

فَأَعْظَمُ الْعَاقِلِينَ عِنْدَهُ الْعَارِفِينَ عَقْلًا عَنْهُ وَمَعْرِفَةَ بِهِ، الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِالْعَجْزِ أَنَّهُمْ لَا يَبْلُغُونَ فِي الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ.

ولكن قد يُسَمَّى كَامِلًا فِي الْعَقْلِ عَنِ اللَّهِ فِي مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي كَانَتْ عَنِ الْعَاقِلِ كَامِلًا مَنْ كَانَتْ فِيهِ ثَلَاثُ خِلَالٍ:



الخوفُ منه، والقيامُ بأمره، وقوةُ اليقين به، وبما قال ووعد وتوعدَّ.

وحُسْنُ البَصَرِ بدينه بالفقه عنه فيما أحبَّ وكرِهَ مِنْ عِلْمٍ ما أَمَرَ به وندبَ إليه، والوقوفُ عند الشُّبُهَاتِ الَّتِي سَمَّى اللَّهُ الْوُقُوفَ عَنْهَا رَسُولُهَا فِي الْعِلْمِ بِهِ.

فإذا اجتمع الخوفُ منه، وقوةُ اليقين به وبما قال ووعد وتوعدَّ، وحُسْنُ البَصَرِ بدينِ اللَّهِ، والفقه في الدين، فقد كَمَّلَ قُوَّةَ عقله.

وإن كان الخوفُ مِنَ اللَّهِ هو مِنْ قُوَّةِ اليقين بالوعيد، فإنه قد يكونُ خائفًا، ولا يكونُ معه اليقينُ القويُّ الذي ينالُ به الرضى والتوكلُ والمحبة والزهد.

فمن ثَمَّ قُلْنَا: الخوفُ مِنَ اللَّهِ وقوةُ اليقين والبصرُ بالدين، لأنَّه قد يكونُ قويُّ اليقين وليس يُحَسِّنُ البَصَرَ بالدين. ويكونُ بصيرًا بالدين لا خائفًا ولا قويُّ اليقين.

وجمَاعُ هذه الثلاثِ الخصالِ قوةُ اليقين، وحُسْنُ البَصَرِ بالدين. وإنما زدنا ذِكْرَ الخوفِ، وإن كان من اليقين؛ لأنَّه قد يكونُ خائفًا، وليس بالقويِّ اليقين في كمالِ ما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ مما

وصَفَ به نَفْسَهُ مِنْ قُدْرِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وما وعد وتوعدَّ، وحذَّرَ، ورجَا، وأنعم، وابتلى به.

ثم هذه الثلاثُ الخلالُ حقائقُ من الفعل بالقلب والجوارح، لأنَّه إذا تَمَّ عقلُ المؤمن عن ربِّه أَفْرَدَهُ عَزَّ وَجَلَّ بالتوحيد له في كُلِّ المعاني؛ فعلم أنه مالكٌ له لا غيره، وأنه عَتِيقٌ مِمَّنْ سِوَاهُ؛ فَتَوَاضَعَ لِعَظَمَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ، وَخَضَعَ لَجَلَالِهِ، وَلَمْ يَذِلَّ لِمَنْ سِوَاهُ؛ وَعَقَلَ عَنْهُ أَنَّهُ الْكَامِلُ بِأَحْسَنِ الصِّفَاتِ، الْمُتَنَزِّهُ مِنْ كُلِّ الْآفَاتِ، الْمُنْعِمُ بِكُلِّ الْأَيَادِي وَالْإِحْسَانِ. فَاشْتَدَّ حُبُّهُ لَهُ، لَمَّا يَسْتَأْهِلُ لِعَظِيمِ قُدْرِهِ، وَكَرِيمِ فِعَالِهِ، وَحُسْنِ أَيْادِيهِ.

وعقل عنه أنه لا يملكُ نفعه وضره في دنياه وآخرته إلا هو، فَأَفْرَدَهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَحْدَهُ وَآمَنَ بِهِ، وَأَيْسَرَ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ. فَهُوَ الْمُوَحِّدُ لَهُ إِذَا عَقَلَ وَحْدَانِيَّتَهُ وَتَفَرَّدَهُ بِكُلِّ مَعْنَى كَرِيمٍ، وَوَصَفٍ جَمِيلٍ، وَجَلالِ عَظَمَتِهِ، وَنَفَازِ قُدْرَتِهِ وَمُضِيِّ إِرَادَتِهِ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ، وَقَدِيمِ أَزَلِّيَّتِهِ.

فإذا كان كذلك زَايَلَ الْكِبَرُ عَلَى (العباد) لَخُضُوعِهِ لَجَلالِ اللَّهِ مَوْلَاهُ فَتَوَاضَعَ لِلْحَقِّ وَلَمْ يَحْقِرْ مُسْلِمًا لَشِدَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِصَغَرِ قُدْرِ

نفسه ولما جنى من الذنوب على نفسه ولعلمه بأن خواتم الأجل بسوء العواقب، وحسن الخاتمة من الشقاء والسعادة قد سبق بهما العلم ونفذت فيهما المشيئة.

فقد آمن من عرفه كبره وبغيه وقد عقل عن الله جل وعز حجه على خلقه واعتذاره إلى خلقه بأنه ليس لهم بظالم، وأنه قد بدأهم بالرحمة قبل العقوبة وقد سبقت منه الأيادي قبل الشكر. طويل الحلم، دائم التأني، جميل الستر، مقيم العثرات، محسن إلى من تبغض إليه، متقرب إلى من تباعد منه، وعقل عنه أمره وآدابه وأحكامه وعقل داء النفوس ودواءها.

فمن عرفه أمل الرشده منه، وأن يحيا بمنطقه، ويعقل عن الله جل ذكره بتأديبه له.

وعقل عن الله عز وجل ما عظم من قدر ثوابه في جنته بدوامه، وطيب العيش فيه، وزوال الآفات، والتكدير، والتنغيص عنه، وأنه فوق ما تحب النفوس، لا يحسن أحد أن يخطر بباله ذكر كثير مما أعد فيها.

وقد قال الرسول ﷺ: «أعد الله عز وجل في جنته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وكفاك بالله تعالى واصفا عما أعد لأولياته إذ يقول عز من قائل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

[السجدة: ١٧]

فقد أخبرنا أنه جاز في الكمال، والنعيم، وقرة العيون وصف الواصفين، ومعرفة العارفين، وذكر الذاكرين لجميع النعيم. فعظم في قلبه جوار مولاه وما أعد فيه لمن أناب إليه وأطاعه، فشخص إليه بعقله؛ فاتصل ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأنه رأى عينه كما قال حارثة: (فكأنني أنظر إلى عرش ربّي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون).

وكما قال الحسن وذكر أولياء الله في الدنيا فقال: (صدقوا به فكأنما يرون ما وعدوا رأي العين).

فلما اتصل عقله بمشاهدة ذلك حن واشتاق، فلما حن واشتاق تعلق قلبه واشتغل، فلما اشتغل بالشوق إلى جوار ربه سلا عن الدنيا فلها عنها، فمن تفكر في دار الدنيا - أين هي من جوار ربه إذ يقول عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]، قيل في التفسير: تفكروا فيهما فعلموا



أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ دَارُ جَزَاءٍ وَبَقَاءٍ - فَعَقَلَ نَعْتَ رَبِّهِ  
لِزَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَا أَخَذَ مِنْهَا لِغَيْرِ الْقُرْبَةِ إِلَى رَبِّهِ فِي  
جَوَارِهِ نَاقِصٌ مِنْ دَرَجَاتِ الْقُرْبِ، وَكَمَالِ النِّعَمِ فِي جَوَارِ رَبِّهِ، وَأَنَّ  
فِيهِ الْحِسَابَ وَالسُّؤَالَ عَنْ نَعِيمِهَا بِالْحَبْسِ عَنِ السَّبْقِ فِي أَوَائِلِ الزُّمَرِ  
إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، وَأَنَّهَا مَشْغَلَةٌ لَهُ عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِرَبِّهِ مَا دَامَ فِيهَا  
حَتَّى مَا يَعْدِلُهُ مِنَ الْإِنْسِ بِرَبِّهِ وَحِلَاوَةِ مُنَاجَاةِ سَيِّدِهِ.

فَارْتَفَعَ قَلْبُهُ عَنْهَا وَتَمَنَّى أَنْ لَوْ اسْتَغْنَى أَنْ يُتَنَاوَلَ مِنْهَا شَيْئًا،  
فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِخْذِ مِنْهَا مَا يُقْوِيهِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ خَوْفًا أَنْ  
يُمْسِكَ عَنِ الْقُوتِ فَيَنْقَطِعَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ.

فَكَانَ نَصِيبُهُ مِنْهَا الْقُوتَ مِنَ الْغِذَاءِ، وَلَمْ يَتَكَلَّفْ مَا جَازَ  
بُلْغَةَ الْقُوتِ مِنْ غِذَائِهِ وَسِتْرِ عَوْرَتِهِ، وَإِنْ تَكَلَّفَ طَلِبَهُ لَمْ يَتَكَلَّفْ  
إِلَّا لِلْقُرْبَةِ إِلَى رَبِّهِ، فَإِنْ ابْتُلِيَ مِنْهَا بِمَا فَوْقَ غِذَائِهِ وَسِتْرِ عَوْرَتِهِ مِنْ  
مِثْلِ مِيرَاثٍ أَوْ غَيْرِهِ فَمَبْذُولٌ كُلُّهُ لِرَبِّهِ يَفْرَحُ بِإِخْرَاجِهِ، وَيَغْتَمُّ أَنْ  
يَمْكُثَ عِنْدَهُ أَقَلُّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ.

وَعَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى آيَاتِهِ فِي تَدْبِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي آثَارِ  
صُنْعَتِهِ، وَدَلَائِلِ حَسَنِ تَقْدِيرِهِ؛ فَعَلِمَ أَنَّه بِقُدْرَةٍ نَافِذَةٍ قَدَرَهَا،

وَبِحِكْمَةٍ كَامِلَةٍ أَتَقَنَهَا، وَبِعِلْمٍ مُحِيطٍ اخْتَرَعَهَا، وَبِسَمْعٍ نَافِذٍ سَمِعَ  
حَرَكَاتِهَا، وَبَبَصَرٍ مُدْرِكٍ لَهَا دَبْرَ لَطَائِفِ خَلْقِهَا، وَغَوَامِضَ كَوَامِنِهَا،  
وَمَا وَارَتْهُ حُجُبُهَا وَسَوَاتِرُهَا.

فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ أَنَّه إِلَهُ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ  
سِوَاهُ. فَكَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ عَيْنٌ يَعْتَبِرُ بِهَا، وَيُحِلُّ وَيُعْظِمُ لِمَا  
يَرَى وَيَسْمَعُ مِنْ مَوْلَاهُ وَسَيِّدِهِ، فَدَامَ ذِكْرُهُ وَزَالَتْ عَنِ اللَّهِ عِزٌّ  
وَجَلٌّ غَفْلَتُهُ، وَعَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مَا يَبْلُغُهُ غَايَةُ الْعِلْمِ بِهِ،  
وَلَا بِلَطَائِفِ مَحَابِّهِ، وَالْقُرْبِ إِلَيْهِ وَالْفَهْمِ لِمَا كَلَّمَهُ بِهِ، فَكَانَ مَعَ  
سَيِّدِهِ اجْتِهَادَهُ، وَدَوَامُ اشْتَغَالِهِ بِرَبِّهِ، غَيْرَ تَارِكٍ وَلَا مَنْقُطِعٍ عَنْ طَلَبِ  
الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْعِلْمِ بِرَبِّهِ.

وَالْتَزِيدُ فِي الْفَقْهِ عَنْهُ أَعْلَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعْظَمُ عِنْدَهُ قَدْرًا مِنْ  
الْإِزْدِيَادِ مِنْ كَثِيرِ أَعْمَالِ النُّوَافِلِ، إِذْ عَقَلَ عَنِ رَبِّهِ أَنَّ أَقْلًا قَلِيلَ  
الْمَعْرِفَةِ يُورِثُ التَّعْظِيمَ وَالْهَيْبَةَ، وَيَبْعَثُ عَلَى الْجَهْدِ، وَيُورِثُ  
الطَّاعَاتِ، وَالشُّغْلَ عَنِ جَمِيعِ الْعِبَادِ.

وَعَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ ابْتَدَأَ عِبَادَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّفَضُّلِ  
وَالْإِحْسَانِ بَعْدَ تَقْدِيمِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَعْصُونَهُ وَيَخَالِفُونَ أَمْرَهُ

فلم يمنعه ذلك عن ابتدائهم بالنعم والتحنن والرحمة والإحسان .  
وجعل أفضل أوليائه عنده، الرحماء بخلقهم، المتحننين على عبادهم،  
الناصحين لبريتهم، وهم رسله الداعون العباد إلى نجاتهم، والمحذرون  
لهم من هلكتهم، المتحملون منهم الأذى، والمتحننون عليهم  
بالرحمة والنصح والإشفاق، مع أذاهم لهم، وتكذيبهم إياهم،  
واستهزائهم بهم؛ لا يكافئونهم بمثل ما نالوا منهم، ولا ينصرفون  
عن الإشفاق عليهم إذ سمعوا الله جل ثناؤه يصفهم إذ قالوا لنوح:  
﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] .

وقالوا لهود: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

ثم وصف جوابهما فقال نوح: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي  
رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾  
[الأعراف : ٦١]

ووصف رد هود عليهم فقال: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ  
وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ \* أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا  
لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾  
[الأعراف : ٦٧، ٦٨] ، أى تظفرون بثواب الله إن قبلتم منى،

فأخبرهم بعد تسفيهم له أنه لم ينصرف من أجل ذلك عن  
النصيحة لهم لعلهم يفلحون .

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ  
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] .

وقال النبي ﷺ، ووصف نبياً من الأنبياء شجته قومه فهو  
يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: « رب اغفر لقومي فإنهم  
لا يعلمون » .

وروى أن نوحاً عليه السلام كان يخنقه قومه حتى يغشى  
عليه فإذا أفاق قال: « رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون » .

وفضل النبي ﷺ صديق هذه الأمة عليها بالرحمة لها،  
فقال: « أرحم أمتي بها أبو بكر » .

فلما عقل عن الله عز وجل ما ابتدأ العباد به من الرحمة،  
وأنه خص أعظم خلقه عنده قدراً، وفضله بها على جميع العباد،  
ألزم قلبه رحمة الأمة فأحب محسنهم، وأشفق على مسيئهم،  
ودعا إلى الله سبحانه - إذا أمكنه - مدبرهم، ولم يدخر مالا عن  
فقيهم ففضل ماله عليهم مبدول، والمواساة في قوته منهم



المجهود. مَنْ سَأَلَهُ مِنْهُمْ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَمْ يَتَبَرَّمْ بِطَلْبِهِ، وَلَمْ يَضْجَرْ بِإِعْطَائِهِ لِلرَّحْمَةِ الَّتِي لَهُمْ فِي قَلْبِهِ، وَمَنْ آذَاهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ لَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ كِرَاهِيَةً لِلْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُ. يَعُدُّهُمْ جَمِيعًا كَأَقْرَبِ الْخَلْقِ مِنْهُ. كَبِيرُهُمْ مِثْلُ أَبِيهِ، وَصَغِيرُهُمْ كَوَلَدِهِ، وَقِرْنُهُ كَأَخِيهِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يَفَارِقَ قَلْبُهُ الشَّفَقَةَ عَلَيْهِمْ.

وعقلَ عن الله تعالى عَظِيمَ قَدْرِهِ وَقَدْرَ مَا يَطْلُبُ مِنْ ثَوَابِهِ، وَمَا يَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ، وَعَظِيمُ الْأَيَادِي وَكَثْرَةُ النِّعَمِ عِنْدَهُ، وَأَنْ جَمِيعَ خَلْقِهِ مِنْ أَهْلِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ لَوْ دَأَبُوا جَمِيعًا وَاجْتَهَدُوا عُمَرَ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَبَدًا مَا أَدَّوْا شُكْرَ نِعَمِهِ وَلَا أَدَّوْا مَا يَحِقُّ فِي عَظَمَتِهِ. فَكَيْفَ بِالْحُلُولِ فِي جَوَارِهِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِهِ؟

فقد عقلَ أَيْ رَبٌّ يَعْبُدُ، وَأَيْ ثَوَابٍ يَطْلُبُ، وَمَنْ أَيْ عِقَابٍ وَعَذَابٍ يَهْرُبُ، وَأَيْ نَعِيمٍ يَشْكُرُ، وَالشُّكْرُ أَيْضًا مِمَّنْ هُوَ وَمَنْ مِمَّنْ بِهِ.

فلما عقلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْ رَبِّهِ اسْتَقْلَّ وَاسْتَصَغَرَ جَمِيعَ دَعْوِهِ وَاجْتِهَادِهِ لِعَظِيمِ مَا عَقَلَ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ.

وعقلَ عن الله تعالى مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَنَّهَا بِالسُّوءِ أَمَّارَةٌ،

وَاللَّذُنُوبِ مَسْئُولَةٌ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي جَنَّتْ عَلَيْهِ مَا قَدْ أَحْصَاهُ رَبُّهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَلَّ بِهِ غَضَبُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَعْدِلُ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِبَعْضِ مَسَاخِطِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَتْهُ عَظِيمُ حُجَّةٌ مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ، وَمَا مَنَّ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ دُونَ أَكْثَرِ الْعَوَامِّ. فَاسْتَكْثَرَ قَلِيلَ طَاعَتِهِمْ وَاسْتَعْظَمَهَا مَعَ اسْتِصْغَارِ كَثِيرِ الطَّاعَاتِ مِنْ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِذُنُوبِهِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَأَنْ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَعْظَمُ مِنْهَا عَلَيْهِمْ.

وعقلَ قَدْرَ مَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ؛ فَعَقَلَ قَدْرَ عَظَمَةِ مَنْ عَصَاهُ، وَشِدَّةِ غَضَبِهِ، وَشِدَّةِ عَذَابِهِ، وَهَوْلِ الْمُكْثِ فِي عِقَابِهِ إِنْ لَمْ يَعْفُ عَنْهُ.

فَعَقَلَ كَثْرَةَ ذُنُوبِهِ وَ(سُوءَ رَغْبَةٍ) نَفْسِهِ، وَدَنَاءَةَ هِمَّتِهِ، وَعَجِيبَ جَهْلِهِ؛ إِذْ كَانَ قَدْ آثَرَ عَلَى رِضَاهُ مِنَ الْعَبِيدِ مَا لَا مَعْنَى لَهُمْ فِي دُنْيَا وَلَا آخِرَةِ بِمُلْكٍ، وَلَا نَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ، وَإِثَارَهُ مِنَ الدُّنْيَا الْمَكْدُورِ الْمَنْغُصِ الْفَانِي مِنْهُ، وَالْفَانِي هُوَ عَنْهُ، وَالْبَاقِي عَلَيْهِ بَعْدَ فَنَائِهِ شِدَّةُ الْحِسَابِ، وَعَظِيمُ السُّؤَالِ عَنْهُ ثُمَّ لَا يَأْمَنْ مَنْ سَخَطَ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ.

فلَمَّا عَقَلَ عن الله عَزَّ وَجَلَّ جميعَ ذلك من نفسه، وتسترَّ عنه عامة ذنوب الخلق، وحقَّتْ عليهم الحجةُ بدون ما وجبتْ من الله عز وجل من أجل العلم الذي استودعه، والستر عليه لذنوبه وما حَبَّبه إلى عبادِه؛ لم يَأْمَنَ أَنْ يكونَ استدراجًا له، وأَنَّهُ وَكَّلَ بالخوفِ على نفسه قبل غيره، وأَنَّهُ لا يَأْمَنُ لِسَالِفِ ذنوبه، وتضييعِ شُكْرِ نِعَمِ رَبِّه، وعظيمِ ما لَزِمَهُ من الحُجَّةِ، وَأَنْ يُخْتَمَ له بغيرِ دينِ الإسلامِ، أو بعظيمِ الذنوبِ مع الإيمان؛ فلم تقع عينُه على أَحَدٍ، ولم يستمع به من المسلمين إلا خاف أن ينجو ويهلك هو دونه. يكسر قَلْبُهُ مَنْ يرى مِنْ أَهْلِ الطاعاتِ، ويقطعُ عليه أنه خيرٌ منه، ويتمنَّى أَنْ يكونَ مثله، ويهيئُ عليه الخوفَ من قلبه مَنْ رآه دونه في الدين يخافُ أَنْ يهلكَ هو دونه، أو يُخْتَمَ له بِأَشْرِّ الأَعْمَالِ لعظيمِ حجةِ العلم، وجميلِ السِّتْرِ عليه، ولما أَمَرَ به مِنْ خوفِ سُوءِ الخواتمِ التي مات عليها الأَشْقِيَاءُ فهو مُتَوَاضِعٌ للعبادِ كُلِّهم لشدَّةِ ذِلَّةِ الخوفِ على نفسه.

وعَقَلَ عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما بَيَّنَّ مِنْ قَدْرِ الدنيا والآخرة فعقلَ صِفَةَ الآخِرَةِ بنعيمِها ومُلْكِها وشرفِها وعِزِّها، وعظيمِ قَدْرِ سكانِها أَنَّها في جوارِ المولى، وما وُصِفَ به سُوءُ عيشِ الدنيا وضِعَّةُ رفعتها

عنده يوم يحاسب عبادَه، وذل العزيز بها عنده في يوم يبعث خَلْقَهُ، وحقارة المتكبرين في عينه، وصنعه بهم يوم النشور حتى إنهم ليُحشرون في صُورِ الذرِّ دون جميع العباد.

وعقل عن الله ما أَمَرَ به، وأخبر أَنَّ الفقيرَ مَنْ استغنى بالدنيا عنها، ومن يجازى بما حرمه من خفةِ الحسابِ والتضاعُدِ في معالي درجاته.

فلَمَّا عقلَ ذلك كُلُّهُ عن ربه كان الفقرُ في الدنيا أَحَبَّ إليه من الغنى بها، وكان التواضعُ أَحَبَّ إليه من الشرفِ فيها، وكان الذُّلُّ أَحَبَّ إليه من العِزِّ بها.

\* \* \*



## مسألة في العقل

الحُجَّةُ حجتان :

عَيَانٌ ظَاهِرٌ، أَوْ خَبَرٌ قَاهِرٌ.

والعقلُ مُضْمَنٌ بالدليل، والدليلُ مُضْمَنٌ بالعقل.

والعقلُ هو المستدلُّ.

والعيانُ والخبرُ هما علَّةُ الاستدلالِ وأصلُّهُ.

ومُحالٌ كَوْنُ الفرعِ مع عدمِ الأصلِ، وكَوْنُ الاستدلالِ مع عدمِ الدليلِ.

فالعَيَانُ شاهدٌ يَدُلُّ على غيبٍ.

والخبرُ يَدُلُّ على صِدْقٍ؛ فَمَنْ تناولَ الفرعَ قبلَ إحكامِ الأصلِ سَفَهَ.

وَرُبَّ حَقٍّ أَحَقُّ مِنْ حَقٍّ، كَمَنْ عفا ومن اقتصَّ، وكاقتضاءِ الدينِ سَاعَةً مَحَلَّهُ، أَوْ تَرَكَه قَلِيلًا إِحْسَانًا إِلَيْهِ، فَقَدْ أَحْسَنَ فِي الطَّلَبِ.

فكم مِنْ حَسَنٍ أَحْسَنَ مِنْ حَسَنٍ غَيْرِهِ، وقبيحٍ أَقْبَحَ مِنْ قبيحٍ، وفرضٍ أَوْجَبَ مِنْ آخَرَ، وَفَضْلٍ أَفْضَلَ مِنْ فَضْلٍ آخَرَ.

والحُبُّ والبُغْضُ إِذَا أَفْرَطَا أَنْقَصَا الاعتدالَ، وَأَفْسَدَا العقلَ، وَصَوْرَا الباطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ.

فأَهْلُ الشَّرِّ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَيْمَتِهِمْ كَمَا لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ إِمَامِهِمْ.

وإنَّ الْحَقَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ بَيِّنٌ، والباطلُ فِي كُلِّ حَالٍ دَاحِضٌ، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ مَطْلَبِهِ، وَبَعْضُهُمْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ وَيَجْهَلُ بَعْضَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفَ ثُمَّ نَسِيَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ أَكْثَرَهُ وَلَا يَعْرِفُ أَسْهَلَ طَرِيقِهِ، وَأَقْرَبَ وَجْهِهِ.

فجميعُ الْحَقِّ فِي فُنُونِ الطَّاعَاتِ، وَتَحْذِيرِ الْبَاطِلِ فِي مَذَاهِبِهِ إِذَا جُمِعَ وَأُلْفَ، وَكَانَ أَنْشَطَ لِحِفْظِهِ، وَيَفْهَمُهُ مَنْ كَانَ لَا يَنْشَطُ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ عَمَلَهُ حَتَّى يَجْمَعَهُ.

وَالْعَالِمُ بِهِ يُرِيدُ جَمْعَهُ فِي بَصِيرَتِهِ، وَجَمَعَ كُلِّ مَذْهَبٍ إِلَّا خَبَرَ الْوَاحِدِ لِمَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بَعْضَهُ.

وَيَذْكُرُ النَّاسَ بِمَا قَدْ عَلِمَهُ فَنَسِيَهُ، وَيَنْبِهُ الْمُتَهَاوِينَ لِمَا كَانَ قَدْ

اشتغل عن العناية بالقيام به، ويُبَيِّنُ للزائغ عن طريق الرُّشد أنه قد تركه. ولعلَّ مَنْ نَظَرَ فيه بالإعجاب برأيه أن يَنْقُضَ مذاهبه، إذا فهمَ حُسْنَ العبارة عنه، وإيضاحَ حُجَجِهِ، ونورَ بيانه؛ يتنبه من رَقْدَتِهِ، ويُفِيقُ من سَكْرَتِهِ، لأنَّ الحقَّ عزيزٌ أين كان، والباطل ذليلٌ في كُلِّ أوانٍ.

\* \* \*

والحجة ظاهرة بنورها على الشبهة.

وليس مَنْ تفرَّد بكتاب يقرؤه وحده مُتَثَبِّتًا فيه؛ لا يَشْغَلُهُ عنه سببٌ يقطعُه كَمَنْ نازعَ غيره لأنه يعترضُ في المناظرة آفاتٌ كثيرةٌ من العُجْبِ بالرأى.

والذى يَمْنَعُ مِنَ الْفَهْمِ الْأَنْفَةِ التى تَمْنَعُ مِنَ الْخُضُوعِ للحقِّ، وَحُبُّ الْغَلْبَةِ الذى يَبْعَثُ على الجَدَلِ، والجَزَعُ مِنَ التَّخَطُّيَةِ التى تَمْنَعُ مِنَ الإِذْعَانِ بالإِقرارِ بالصَّوابِ.

فلَمَّا كَثُرَتْ آفاتُ الْمُنَاطَرَةِ، وكان التفرُّدُ بقراءة الكتابِ المجموعِ فيه، والمؤلَّفِ فيه حدودَ الحقِّ، رَأَيْتُ أَنْ أُصَنِّفَهُ مَبِينًا، وأستشهدَ عليه الكتابُ والسنةُ وإجماعُ الأُمَّةِ أو استنباطًا بينًا،

أو قياسًا إذا عدم البيانُ بالنصِّ فيما يجوزُ فيه القياسُ، وإلا فالتسليم. والأَصَوْنُ الكَفُّ عن تَكْلُفٍ ما نُهِيَ عنه مما يَسَعُ جَهْلُهُ، ولا يُوَدِّى عِلْمُهُ إلى القُرْبَى. بل تَرُكُ البَحْثِ عنه هو القُرْبَى والوسيلةُ إلى رِضَى الله عز وجل.

ولا غناءً بالعبدِ عن التَّفَكِيرِ والنَّظَرِ والذِّكْرِ لِيَكْثُرَ اعتباره، ويزيدَ فى علمه، ويعْلُوَ فى الفضلِ.

فَمَنْ قَلَّ تَفَكُّرُهُ قَلَّ اعتباره، وَمَنْ قَلَّ اعتباره قَلَّ عِلْمُهُ، ومن قَلَّ عِلْمُهُ كَثُرَ جَهْلُهُ، وبانَ نَقْصُهُ ولم يجدْ طَعْمَ البرِّ، ولا بَرْدَ اليقين، ولا روحَ الحكمة.

وما بلغَ عِلْمٌ مَنْ دَرَسَ الْعِلْمَ بِلِسَانِهِ، وحَفِظَ حُرُوفَهُ بِقَلْبِهِ، وَأَضْرَبَ عَنِ النَّظَرِ والتَّذَكُّرِ والتَّدْبِيرِ لمعانيه وطلبَ بيانَ حدوده؟

ما أَقْرَبَهُ فى حَيَاتِهِ مِنْ حَيَاةِ الْبَهَائِمِ التى لا تعرفُ إِلَّا ما بَاشَرَتْهُ بِجَوَارِحِهَا، لكنَّ المتذَكِّرَ النَّاطِرَ فيما يَسْمَعُ، المتدبِّرَ لِمَا عِلِمَ، المتفهمَ لما به أُمِرَ، الطالبَ لِنَهَايَةِ حُدُودِ الْعِلْمِ، الغائِصَ على غَامِضِ الْإِصَابَةِ، الْمُحْكِمَ لِلْأُصُولِ، الرَّادَّ

عليها الفروع، هو المفرق بين ما له وما عليه، والمبصر لما يصلحه وما يفسده، القوى على عصيان طبائعه المنازعة إلى ما يهلكه، والمخالف لشهواته التي ترديه.

عارف بعواقب الأمور وبما يحدث في غابر الدهور مما حدث منه، وهاب ربه، المؤثر لذة عقله على لذة هواه..  
لذة الحكماء العلماء في عقولهم ولذة الجهال والبهايم في شهواتهم.

وأى سرور يعدل سرور العلم، وروح اليقين، وعظيم المعرفة، وكثرة الصواب، والظفر الذي لا يثب ولا ينال إلا بحسن النظر، وطول التذكر، وتكرار الفكر، والتقديم في التكبير.

فبذلك ظفر بالعلم بالله، والتعرض لولايته، وطلب الجاه عنده، والتسليم لأمره، والتوكل على كفايته، وبذل القليل من الدنيا للثواب الجزيل؛ لأنه الرب الكريم.

من طلبه وجده، ومن استكفاه كفاه، ومن اتقاه وقاه، ومن تقرب إليه أسرع إليه بالإجابة.

يدعوك إن أدبرت ويقبلك إن رجعت، ويحمدك على حظك، ويثنى عليك بما وهب لك، ويحضك على النظر لنفسك.

إنما يمرضك ليصحك - إن عقلت - ويفقرك ليغنيك، ويمنعك ليعطيك، يمنحك القليل الفانى لترضى؛ فيعطيك الجزيل الباقي، ويميتك ليحييك، ويفنيك ليبقيك، ويداويك بالأمراض لتبرأ من سقم الذنوب، ويغمك بالأوجاع ليغسلك من درن الخطايا، ويعركك بالبلاء ليلين قلبك لطلب الفوز.

ابتدأك بالنعم قبل أن تسأله، وثناها بعدما ضيعت شكره، وأدامها بإحسانه مع دوام الإعراض منك عنه، فكيف تعرف إحسانه، وتبين إساءتك، وتبصر نجاتك، وتوضح لك أسباب عيشك إلا بالنظر بعقلك فيما قال؟ والتذكر والمجاهدة لنفسك إلا لتعرف ما يرضيه وتجنب ما يسخطه، ويباعد منه؛ لأنه قد جعل فيك غريزة العقل، ومن عليك بالمعرفة، وابتلاك بما فى طباعك مما يهيج الغضب والرضى والبخل بالسكوت لأن الصمت



أعجمي، وفاعله كالأخرس لا يعرف معناه إلا صاحبه. والقول فصيح مبين يعرفه سامعه، ومن بلغه إلى يوم القيامة لم يعرف القول الحق بالصمت، ولا جميع الأعمال بالحق إلا بالقول، بل لم يعرف الصمت عن الباطل إلا بالقول لما عرفه من الكتاب.

وإنما أمر النبي ﷺ بالصمت لتارك القول بالخير فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

ولم يعرف الأداء والبيان عن جميع الإحسان إلا بالقول.

\* \* \*

## في العقل (١)

وأنه خاطبهم به من قبل ألبابهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤، الرعد: ٤، النمل: ١٢، العنكبوت: ٣٥، الروم: ٢٤، ٢٨، الجاثية: ٥] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤، الرعد: ٣، النحل: ١١، ٦٩، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣]، لأنه جعل العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوى كل محصل، وبها يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنهما تصدر الجوارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها أو تزجرها، فتمسك عن مكروها.

(١) المحاسبى [كتاب فهم القرآن ومعانيه] ص ٢٦٦، ٢٦٧.

فاستخلصَ من عِبَادِهِ خالصةً من خَلْقِهِ، فَهَمَّتْ عَنْهُ قَوْلُهُ  
بعقولِها، فَاتَّسَعَ لَهَا مَا خَفِيَ عَنْ الْأَبْصَارِ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَنْزَلَ كِتَابَهُ لِيَدَّبُّرُوا آيَاتِهِ بِعُقُولِهِمْ،  
وَيَتَذَكَّرُوا مَا قَالَ بِالْبَابِهِمْ، وَقَالَ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾  
فَسَمَّاهُ بِالْبَرَكَةِ، لِيَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ يَدُلُّهُمْ عَلَى النِّجَاةِ، وَيُنَالُونَ  
بِاتِّبَاعِهِ الزُّلْفَى وَالْكَرَامَةَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿لِيَدَّبُّرُوا آيَاتِهِ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ  
أَنْزَلَهُ لِلتَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَخَصَّ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ أَهْلَ  
الْعُقُولِ، أُولَى الْأَلْبَابِ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## ( ٢ ) حُجَّةُ الْإِسْلَامِ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِي ( ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م )

هو أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزالي .. فقيه  
شافعي .. ومتكلم أشعري .. وأحد الذين طوروا الأشعرية، التي  
غدت المذهب الكلامي لجمهور الأمة الإسلامية .. وهو - أيضاً -  
أصولي .. وفيلسوف .. وصاحب تجربة صوفية شديدة الغنى  
وبالغة الثراء، أثمرت إبداعاً متميزاً في علم السلوك والقلوب ..

ولد الغزالي في « الطابران » - من أعمال « طوس » - في  
مشرق العالم الإسلامي - .. ورحل - طالباً للعلم ومعلماً - إلى  
كثير من الحواضر والأقاليم في عالم الإسلام - مثل نيسابور ..  
وبغداد .. والحجاز .. والشام .. ومصر - وغيرها .. ثم كانت وفاته  
بخراسان ..

ولقد تميز الغزالي - في تاريخ الفكر الإسلامي - عندما  
جمع بين الاجتهاد وبين التجديد والإحياء لحياة الأمة ولعلوم

( ١ ) المحاسبى [ كتاب فهم القرآن ومعانيه ] ص ٢٧٥ .

الإسلام.. كما كان نموذجاً لمنهاج الوسطية الإسلامية التي جمعت بين العقل والنقل والوجدان..

كما تميز عندما أصبح «ظاهرة فكرية» تطبع قطاعات واسعة من ميادين الفكر الإسلامى، وتجذب المريدين، منذ عصره وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه..

ولقد بلغت مؤلفات الغزالي نحواً من مائتى كتاب ورسالة – كتب أغلبها بالعربية.. وبعضها بالفارسية – ثم ترجمت إلى العربية.. كما ترجمت العديد من آثاره الفكرية إلى العديد من اللغات الأوروبية.. وكان واحداً من الذين أثروا تأثيراً كبيراً فى الفكر الدينى الغربى، وفى النهضة الأوروبية الحديثة..

ومن أهم آثاره الفكرية :

- ١ – [إحياء علوم الدين] . ٢ – [تهافت الفلاسفة].
- ٣ – [مقاصد الفلاسفة] ٤ – [المستصفى من الأصول]
- ٥ – [الاقتصاد فى الاعتقاد] . ٦ – [معيان العلم] .
- ٧ – [القسطاس المستقيم] . ٨ – [ميزان العمل].
- ٩ – [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] .

١٠ – [مشكاة الأنوار] . ١١ – [معارج القدس]

١٢ – [المنقذ من الضلال] . ١٣ – [فضائح الباطنية]

١٤ – [المعارف العقلية] .

١٥ – [المضنون به على غير أهله] .

١٦ – [إلجام العوام عن علم الكلام] .

١٧ – [جواهر القرآن] .

١٨ – [ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل] .

١٩ – [التبر المسبوك فى نصيحة الملوك] .

٢٠ – [منهاج العابدين] . ٢١ – [عقيدة أهل السنة]

٢٢ – [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] .

وغيرها من الكتب والرسائل..

\* \* \*



## نصوص فى مقام العقل عند حجة الإسلام الغزالى

### [مكانة العقل]

[من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففى العمى والضلال] أبو حامد الغزالى.

الحمد لله الذى اجتبى من صفوة عباده عصاة الحق وأهل السنة، وخصَّهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنَّة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التى قمع بها ضلال الملحدين، وصفَّى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمَّر أفئدتهم بأنوار اليقين، حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد ﷺ سيد المرسلين.

واطلَّعوا على طريق التلفيق<sup>(١)</sup> بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية<sup>(٢)</sup> وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أُوْتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة فى تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أُوْتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.

بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم. وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر؟ أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذى عُرف به صدقه فيما أخبر؟

(١) من اللفق.. أى الجمع والوصل والتوفيق.

(٢) الذين يقفون عند ظواهر النصوص لعجزهم عن النظر فى مقاصدها.

وكيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟. فليت شعري! كيف يفرع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر، أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟

هيهات قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات، من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمُعَرِّض عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدلّ بحبل غرور.

وسيتضح لك - أيها المشوق إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة - أنه لم يستأثر بالتوفيق، بالجمع بين الشرع والتحقيق، فريق سوى

هذا الفريق<sup>(١)</sup>.. فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يُقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونه.

\* (دقيقة) :

اعلم أن العقول، وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات عندها على مرتبة واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة، كالعلوم الضرورية، مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديماً حديثاً، ولا يكون موجوداً معدوماً، والقول الواحد لا يكون صدقاً وكذباً، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجوداً كان الأعم واجب الوجود، فإذا وُجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وُجد الإنسان فقد وُجد الحيوان.. وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد، ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات.

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٢، ٣. طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ.

ومنها ما لا يقارن في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه، ويستورى زناده، وينبه عليه بالتنبيه، كالنظريات، وإنما ينبهه كلام الحكماء، فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، ومن جملة كلامه القرآن خاصة، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا يبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد

كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك... (١).

والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده... (٢).

وإن ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب، إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرار، ومن الذي رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضرر، وأخبر عنه؟ ولا يدرك بقياس العقل، فإن العقول قاصرة عن ذلك، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت، ولا يرشد إلى ضرر المعاصي ونفع الطاعات، لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد، كما وردت به الشرائع، بل أقروا بجملتهم أن ذلك

(١) [مشكاة الأنوار] ص ٣٦، ٥١ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(٢) [المضنون به على غير أهله] ص ٣٤٥ - طبعة مكتبة الجندی - القاهرة - ضمن مجموعة - بدون تاريخ.



لا يدرك إلا بنور النبوة، وهى قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية، وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء، فضلاً عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة، المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة.. (١).

إن ما لا يُعَلَّم بالضرورة ينقسم إلى :  
ما يُعَلَّم بدليل العقل دون الشرع.  
وإلى ما يُعَلَّم بالشرع دون العقل.  
وإلى ما يُعَلَّم بهما.

أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع، فهو حدوث العالم، ووجود المحدث، وقدرته، وعلمه وإرادته، فإن كل ذلك ما لم يثبت لم يثبت الشرع، إذ الشرع يُبنى على الكلام، فإن لم يثبت كلام النفس لم يثبت الشرع، وكل ما يتقدم فى الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس، وما يستند

(١) [إلجام العوام عن علم الكلام] ص ١٧١، ١٧٢ طبعة مكتبة الجندى - ضمن مجموعة - بدون تاريخ.

إليه، ونفس الكلام أيضاً فيما اخترناه لا يمكن إثباته بالشرع، ومن المحققين من تكلف ذلك وادعاه.

وأما المعلوم بمجرد السمع، فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع، فإن ذلك من موافق العقول، وإنما يُعرف من الله تعالى بوحي وإلهام، ونحن نعلم من الوحي إليه بسماع كالحشر والنشر والثواب والعقاب وأمثالها.

وأما المعلوم بهما، فكل ما هو واقع فى مجال العقل ومتأخر فى الرتبة عن إثبات كلام الله تعالى، كمسألة الرؤية، وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والأعراض<sup>(١)</sup> كلها وما يجرى هذا المجرى.

ثم، كل ما ورد السمع به يُنظر، فإن كان العقل مجوزاً له وجب التصديق به قطعاً إن كانت الأدلة السمعية قاطعة فى متنها ومستندها، لا يتطرق إليها احتمال، ووجب التصديق بها ظناً إن كانت ظنية..

وأما ما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يُتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف

(١) مفردتها عرض - بفتح العين والراء - وهو المقابل للجوهر والذات، وهو يقوم بغيره لا بذاته.

للمعقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة،  
والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل، فإن توقف  
العقل في شيء من ذلك فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز  
وجب التصديق أيضاً لأدلة السمع، فيكفي في وجوب  
التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة، وليس يشترط  
اشتماله على القضاء بالتجويز، وبين الرتبتين فرق ربما يزل عن  
ذهن البليد... (١).

والوحي الإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل..  
فإن أراد بنبو العقل أن برهان العقل يدل على استحالته، كخلق  
الله تعالى مثل نفسه، أو الجمع بين المتضادين، فهذا ما لا يرد  
الشرع به.

وإن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه، ولا يستقل  
بالإحاطة بكنهه، فهذا ليس بمحال أن يكون في علم الأطباء  
مثل جلب المغناطيس للحديد، وأن المرأة لو مشت فوق حية  
مخصوصة ألفت الجنين، وغير ذلك من الخواص، وهذا مما ينبو  
عنه العقل، بمعنى أنه لا يقف على حقيقته، ولا يستقل

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٢١، ١٢٢.

بالاطلاع عليه، فلا ينبو عنه الحكم باستحالته، وليس كل  
ما لا يدركه العقل محالاً في نفسه... وفرق بين البعيد والمحال،  
فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يتصور كونه (١)..  
وأما اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله  
تعالى، الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه (٢)..  
ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقل (٣)...

إن في قلب الإنسان عينا هي صفة كمالها، وهي  
التي يُعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس  
الإنسانية.

والعقل أولى بأن يُسمى نوراً من العين الظاهرة لرفعة  
قدره عن النقائص السبع:

أما الأولى: فهو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك  
غيره ويدرك نفسه، ويدرك صفات نفسه..

(١) [المضنون به على غير أهله] ص ٣١٨، ٣١٩.

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٩٨.

(٣) [رسالة الغزالي إلى ملك شاه في العقائد] ص ٧٩ طبعة القاهرة -  
ضمن مجموعة سنة ١٩٠٧ م.

الثانية : أن العين لا تبصر ما قرب منها قريباً مفرطاً  
ولا ما بعد ، والعقل عنده يستوى القريب والبعيد ..

الثالثة : أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب ، والعقل  
يتصرف فى العرش والكرسى وما وراء حجب السموات ..  
كتصرفه فى عالمه الخاص به ..

والرابعة : أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها  
وسطحها الأعلى دون باطنها ، بل قوالبها وصورها وأرواحها ،  
دون حقائقها ، والعقل يتغلغل فى بواطن الأشياء وأسرارها ،  
ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط أسبابها وعللها  
وحكمتها .

والخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات ، إذ تقصر  
عن جميع العقولات وعن كثير من المحسوسات ، ولا تدرك  
الأصوات ولا الروائح ولا الطعوم والحرارة والبرودة والقوى  
المدركة ، أعنى قوة السمع والشم والذوق ، والموجودات كلها  
مجال العقل ، إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها وما لم  
نعدده ، وهو الأكثر ، فيتصرف فى جميعها ، ويحكم عليها  
حكماً يقيناً صادقاً ..

والسادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له ، فإنها تبصر  
صفات الأجسام المعلومات ، والأجسام لا تتصور إلا متناهية ،  
والعقل يدرك المعقولات ، والمعقولات لا تتصور أن تكون  
متناهية .. إنه يدرك الأعداد ، ولا نهاية لها .. ويدرك أنواعاً من  
النسب بين الأعداد ، ولا يتصور لها نهاية ..

والسابعة : أن العين تدرك الكبير صغيراً ، فترى الشمس  
فى مقدار مجرد ، والكواكب فى صورة دنائير منشورة على  
بساط أزرق ، وترى الكواكب والظل والصبى ساكنة ، والعقل  
يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ،  
ويراها متحركة ، ويرى نمو الصبى ..

فالعين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس ،  
والعقل أولى باسم النور من العين<sup>(١)</sup> ..

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه : العقل الذى تنبه به  
على البهيمة ، وألحقه بسببه بعالم الملائكة ، حتى تأهل به لمعرفة

(١) [مشكاة الأنوار] ص ٣٣ ، ٣٦ .



باريه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من الحكمة<sup>(١)</sup>.

«الأصول الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

\* (فى السببية) :

«إننا نسلّم أن النار خلقت خَلْقَةً إِذَا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرّق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه».

ولكننا، مع هذا، نجوز أن يُلقى شخص فى النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة فى النار تقصر سخونتها على جسمها، بحيث لا تتعدها، وتبقى معها سخونتها، وتكون

(١) [أسرار المخلوقات] ص ٧٧ - طبعة تونس سنة ١٩٩٠ م.

(٢) [المستصفى من علم الأصول] ج ١ ص ٣١٥، ٣١٦، طبعة دار صادر - بيروت.

على صورة النار حقيقتها، ولكن لا تتعدى سخونتها وأثرها، أو يحدث فى بدن الشخص صفة ولا يخرجها عن كونه لحمًا وعظمًا، فيدفع أثر النار، فإننا نرى من يطلى نفسه بالطلق<sup>(١)</sup> ثم يقعد فى تنور موقد فإنه لا يتأثر بالنار، والذي لم يشاهد ذلك ينكره، وإنكار الخصم اشتغال القدرة على إثبات صفة من الصفات فى النار أو فى البدن تمنع الاحتراق كإنكار من لم يشاهد الطلق وأثره..

وفى مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب، ونحن لم نشاهد جميعها، فلا ينبغى أن ينكر إمكانها ويحكم باستحالتها.

وكذلك إحياء الميت وقلب العصا ثعبانًا ممكن بهذا الطريق، وهو أن المادة قابلة لكل شىء، فالتراب وسائر العناصر يستحيل نباتًا، ثم النبات يستحيل عند أكل الحيوان له دمًا، ثم الدم يستحيل منيًا، ثم المنى ينصب فى الرحم فيتخلق حيوانًا، وهذا بحكم العادة واقع فى زمان متناول، فلم

(١) مادة عازلة.

يحيل الخصم أن يكون في مقدورات الله تعالى أن يدبر المادة في هذه الأطوار في وقت أقرب مما عهد فيه؟ وإذا جاز في وقت أقرب فلا ضبط للأقل، فتستعجل هذه القوى في عملها، ويحصل به ما هو معجزة النبي....

إن الاقتران بين ما يُعْتَقَد في العادة سبباً وما يُعْتَقَد مسبباً ليس ضرورياً عندنا<sup>(١)</sup>، بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الرى والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم ومن الصناعات والحرف، وإن اقترانها لما سبق في تقدير الله سبحانه وتعالى

(١) أى ليس حتمياً.. فالذى ينكره الغزالي هو الحتمية، التى تنفى جواز أن يوقف خالق الأسباب عملها فى المسببات.. لأن القائلين بالحتمية ينكرون المعجزات، وينكرون كون الخالق - سبحانه - هو الفاعل الحقيقى.

لخلقها على التساوق، لا لكونها ضرورياً فى نفسه غير قابل للفرق، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم إلى جميع المقترنات..

وأنكر الفلاسفة إمكانه، وادعوا استحالة.. وعن هذا المعنى أنكروا وقوع إبراهيم - صلى الله على نبينا وعليه وسلم - فى النار مع عدم الاحتراق، وبقاء النار ناراً، إذ زعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار، وذلك بخروجه من كونه ناراً، أو بقلب ذات إبراهيم وبدنه حجراً أو شيئاً لا يؤثر فيه النار، ولا هذا ممكن ولا ذاك..

إن فاعل الاحتراق بخلق السواد فى القطن والتفرق فى أجزائه وجعله حرقاً ورماداً هو الله تعالى، بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، فأما النار فهى جماد لا فعل لها.. وقد تبين أن الموجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به.. وإذا ثبت أن الفاعل يخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقة القطن النار أمكن فى العقل أن لا يخلق مع وجود الملاقة..<sup>(١)</sup>

(١) [تهافت الفلاسفة] ص ٦٥ - ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

## في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه (١)

### بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل. والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى إن أعظم البهائم بدناً وأشدّها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه، لشعوره باستيلائه عليه، لما خص به من إدراك الحيل. ولذلك قال ﷺ (٢): «الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ» وليس ذلك لكثرة ماله، ولا لكبر شخصه، ولا لزيادة قوته، بل لزيادة تجربته التي هي

(١) [إحياء علوم الدين] ج ١ ص ١٤٠، ١٥٢ - طبعة دار الشعب - القاهرة.

(٢) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته: ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

ثمرة عقله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله ﷺ، فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة، هابوا، وتراءى لهم ما كان يتلأأ على ديباجة وجهه من نور النبوة، وإن كان ذلك باطناً في نفسه بطون العقل، فشرف العقل مدرك بالضرورة. وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه، وقد سماه الله نوراً في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥] وسمى العلم المستفاد منه روحاً وروحاً وحياة، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل، كقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال ﷺ (١): «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقِلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ

(١) حديث يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل - الحديث: داود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود.



تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الْخَطَرِ دَنَى الْمَنْزِلَةِ رَثَّ الْهَيْئَةِ، وَأَنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ فَصِيحًا نَطُوقًا، فَالْقَرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ عَصَاهُ، وَلَا تَغْتَرَّ بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِيَّاكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ». وقال ﷺ (١): «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ. فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَى مِنْكَ، بِكَ آخِذٌ، وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُثِيبُ، وَبِكَ أُعَاقِبُ». فَإِنْ قُلْتَ: فَهَذَا الْعَقْلُ إِنْ كَانَ عَرَضًا، فَكَيْفَ خُلِقَ قَبْلَ الْأَجْسَامِ؟ وَإِنْ كَانَ جَوْهَرًا، فَكَيْفَ يَكُونُ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَلَا يَتَحَيَّزُ؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة. وعن أنس

(١) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل - الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين.

رضي الله عنه (١) قال: أَثْنَى قَوْمٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى بَالَغُوا، فَقَالَ ﷺ: كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ؟ فَقَالُوا: نُخْبِرُكَ عَنْ اجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَأَصْنَافِ الْخَيْرِ، وَتَسَأَلْنَا عَنْ عَقْلِهِ! فَقَالَ ﷺ: «إِنْ الْأَحْمَقُ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ غَدًا فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ». وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (٢): «مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى وَيُرُدُّهُ عَنْ رَدًى، وَمَا تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ وَلَا اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ». وقال ﷺ (٣): «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَلَا يَتَمُّ لِرَجُلٍ حُسْنُ خُلُقِهِ حَتَّى يَتَمَّ عَقْلُهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَمَّ إِيمَانُهُ وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَعَصَى عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ».

(١) حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا في الثناء فقال: كيف عقل الرجل الحديث: ابن المحبر في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.

(٢) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل - الحديث: ابن المحبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة.

(٣) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث: ابن المحبر من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده به. والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله ولا يتم، من حديث عائشة وصححه.

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (١) : « لِكُلِّ شَيْءٍ دَعَامَةٌ وَدَعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ ، فَبَقْدَرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفَجَّارِ فِي النَّارِ : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارى (٢) : « مَا السُّؤْدَدُ فِيكُمْ ؟ قَالَ الْعَقْلُ : قَالَ : صَدَقْتَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا سَأَلْتُكَ ، فَقَالَ كَمَا قُلْتَ ، ثُمَّ قَالَ : سَأَلْتُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا السُّؤْدَدُ ؟ فَقَالَ الْعَقْلُ . وعن البراء بن عازب رضى الله عنه (٣) قال : « كَثُرَتْ الْمَسَائِلُ يَوْمًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلَالَةً وَمَعْرِفَةً بِالْحُجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلًا » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٤) : « لَمَّا رَجَعَ

( ١ ) حديث أبي سعيد لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله - الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث .

( ٢ ) حديث عمر أنه قال لتميم الدارى ما السؤدد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله ﷺ - الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث .

( ٣ ) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية - الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث .

( ٤ ) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان - الحديث : ابن المحبر .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ : فُلَانٌ أَشْجَعُ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَبْلَى مَا لَمْ يُبَلِّ فُلَانٌ وَنَحْوَ هَذَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَلَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ ﷺ : إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدَرٍ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ ، وَكَانَتْ نُصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَى مَنَازِلَ شَتَّى ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اقْتَسَمُوا الْمَنَازِلَ عَلَى قَدَرِ نِيَّاتِهِمْ وَقَدَرِ عُقُولِهِمْ » .

وعن البراء بن عازب أنه ﷺ قال (١) : « جَدَّ الْمَلَائِكَةُ وَاجْتَهَدُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعَقْلِ ، وَجَدَّ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ ، فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلًا » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت (٢) : « قُلْتُ :

( ١ ) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل - الحديث : ابن المحبر كذلك وعنه الحارث في مسنده ورواه البغوى في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر .

( ٢ ) حديث عائشة قلت : يا رسول الله بأى شيء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل - الحديث ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه .

يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِمِ يَتَفَاضِلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: بِالْعَقْلِ، قُلْتُ: وَفِي الْآخِرَةِ؟ قَالَ: بِالْعَقْلِ. قُلْتُ: أَلَيْسَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ؟ فَقَالَ ﷺ: يَا عَائِشَةُ: وَهَلْ عَمِلُوا إِلَّا بِقَدْرِ مَا أُعْطَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ؟ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ (١): «لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ، وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ الْعِبَادِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ وَدَاعِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بَضَاعَةٌ وَبَضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قِيَمٌ وَقِيَمُ بُيُوتِ الصَّدِّيقِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الْآخِرَةِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذَكَّرُ بِهِ وَعَقِبُ الصَّدِّيقِينَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ وَيُذَكَّرُونَ بِهِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ

(١) حديث ابن عباس لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل - الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث.

الْعَقْلُ». وقال ﷺ (١): «إِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وَكَمَلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ، وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ». وقال ﷺ (٢): «أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى خَوْفاً وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظْراً، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّكُمْ تَطَوُّعاً».

\* \* \*

(١) حديث أن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله - الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف.

(٢) حديث أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً - الحديث: ابن المحبر من حديث أبي قتادة.

## بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه : أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان، كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة، وما يجرى هذا المجرى، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

**فالأول :** الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعدَّ به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي، حيث قال في حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل

عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها يتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية. ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية، فيقال : لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم، لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة، ويقال : لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصةً بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد، وكما وجب أن يقال : لم يكن مفارقتها للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل، وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية. فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين



إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثانى : هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات : كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . وهو أيضاً صحيح فى نفسه ؛ لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهراً، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال : لا موجود إلا هذه العلوم .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبه المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً .

الرابع : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب

الأمر، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سُمى صاحبها عاقلاً، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان . فالأول هو الأس والسنخ (\*) والمنبع، والثانى هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثانى؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى، فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رَأَيْتَ الْعَقْلَ عَقْلِينَ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ  
وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذْ لَمْ يَكْ مَطْبُوعٌ  
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضُوءَ الْعَيْنِ مَمْنُوعٌ

والأول هو المراد بقوله ﷺ (١) : « مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ » والأخير هو المراد بقوله ﷺ (٢) : « إِذَا تَقَرَّبَ

(\*) السنخ : الأصل .

(١) حديث ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل : الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة .

(٢) حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك : أبو نعيم =

النَّاسَ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبُ أَنْتَ بِعَقْلِكَ» وهو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبي الدرداء رضى الله عنه (١) «ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً» فقال: بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك؟ فقال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً، وأعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعةً وكرامةً وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز». وعن سعيد بن المسيب (٢) «أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال ﷺ: العاقل. قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: العاقل، قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل. قالوا: أليس العاقل

= فى الحلية من حديث على إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب. وإسناده ضعيف.

(١) حديث ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً - الحديث: قاله لأبى الدرداء: ابن المحبر ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر.

(٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال: العاقل - الحديث: ابن المحبر.

مَنْ تَمَّتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ وَجَادَتْ كَفُّهُ وَعَظُمَتْ مَنَزِلَتُهُ؟ فقال ﷺ: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥] إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيساً ذليلاً، قال ﷺ فى حديث آخر (١): «إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ».

ويشبهه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة، وكذا فى الاستعمال، وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشئ بثمرته، فيقال: العلم هو الخشية، والعالم من يخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم، فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة. والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة، والاسم يطلق على جميعها، ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول. والصحيح وجودها، بل هى الأصل، وهذه العلوم كأنها معضمة فى تلك الغريزة بالفطرة، ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها

(١) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته: ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلًا وفيه قصة.

إلى الوجود، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها مستكنة فيها فظهرت. ومثاله الماء في الأرض، فإنه يظهر بحفر البئر، ويجمع ويتميز بالحس؛ لا بأن يساق إليها شيء جديد. وكذلك الدهن في اللوز، وماء الورد في الورد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرر وإلى جاحد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] معناه: إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أي كل آدمي فطر على الإيمان بالله عز وجل، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك.

ثم لما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسى وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها.

ولذلك قال عز وجل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: ٧] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] وتسمية هذا النمط تذكراً ليس ببعيد، فكأن التذكر ضربان: أحدهما: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر: أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة، ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات، ويتعسف في تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات، ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار، ويعتقد فيها التهافت. ومثاله مثال الأعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول: ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها؟ فيقال له إنها في مواضعها، وإنما الخلل في بصرك. فكذلك خلل البصيرة يجرى

مجراه وأطم منه وأعظم، إذ النفس كالفرس، والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضرم من عمى الفرس.

ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وسمى ضده عمى، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة، وسمى الكل رؤية.

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة، لم يعلق به من الدين إلا قشوره، وأمثله دون لبابه وحقائقه. فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.

\* \* \*

## بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله، بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق.

والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً، وكذا سائر النظائر، وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك. وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها.

أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير



مقصود عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفاً، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعروف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يساويه في العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد، فيكون الخوف جنداً وعُدّة له في قمع الشهوات وكسرها، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي، وأعنى به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان. فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً، فإنه يقوى غريزة العقل، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه. وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل، فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد.

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة، وإما تفاوتاً في الممارسة. فأما الأول

وهو الأصل أعنى الغريزة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه. ومبادئ إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة. ومثاله نور الصبح، فإن أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه، ثم يتدرج إلى الزيادة، إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس.

وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغته بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات. ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربة العقل.

ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاة لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم،

وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم! كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام، إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع، ويعبر عن ذلك بالإلهام. وعن مثله عبر النبي ﷺ حيث قال<sup>(١)</sup>: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَحَبُّ مَنْ أَحَبَّتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِي بِهِ». وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع. ودرجات الوحي كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة.

ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي، إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة،

(١) إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقه - الحديث: الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف.

ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا.

وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم، وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم، وإلى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه، كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا، وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات، وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت<sup>(١)</sup>: «يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا

(١) حديث ابن سلام سئل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يا رب هل خلقت شيئا أعظم من العرش - الحديث: ابن الحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا.

أَعْظَمَ مِنَ الْعَرْشِ؟ قَالَ نَعَمْ: الْعَقْلُ، قَالُوا وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ هَيْهَاتَ لَا يُحَاطُ بِعِلْمِهِ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي خَلَقْتُ الْعَقْلَ أَصْنَافًا شَتَّى كَعَدَدِ الرَّمْلِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرْقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقًا(\*)، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ».

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صنعة الكلام، فلم يقدرُوا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية، إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب، فذموا العقل والمعقول، وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله

(\*) الفرق والوسق: نوعان من المكاييل.

تعالى عليه؟ وإن ذم فما الذي بعده يحمده؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبِمَ علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضًا مذمومًا. ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإننا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور.

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ. فهذا القدر كاف في بيان العقل. والله أعلم.

\* \* \*

## المصادر والمراجع

- الأفغانى : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق :  
دكتور محمد عمارة - طبعة  
القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- الطريقة العزمية : [خطر تقسيم التوحيد على عقائد  
المسلمين] طبعة القاهرة سنة  
١٤٢٦ هـ سنة ٢٠٠٥ م.
- الغزالي - أبو حامد : [إحياء علوم الدين] طبعة دار  
الشعب - القاهرة.
- [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة  
مكتبة صبيح - القاهرة - بدون  
تاريخ.
- [مشكاة الأنوار] طبعة القاهرة  
سنة ١٩٠٧ م.
- [تهافت الفلاسفة] طبعة القاهرة  
سنة ١٩٠٣ م.
- [المضنون به على غير أهله] طبعة  
مكتبة الجندى - ضمن  
مجموعة - القاهرة - بدون  
تاريخ.

- [إجام العوام عن علم الكلام]  
طبعة مكتبة الجندى - ضمن  
مجموعة القاهرة - بدون تاريخ.
- المحاسبى - الحارث بن أسد- : [العقل وفهم القرآن] دراسة  
وتحقيق : حسين القوتلى - طبعة  
بيروت سنة ١٣٩٨ هـ سنة  
١٩٧٨ م.
- [كتاب فهم القرآن ومعانيه]  
دراسة وتحقيق : حسين القوتلى -  
طبعة بيروت سنة ١٣٩٨ هـ سنة  
١٩٧٨ م.
- محمد عبده : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق :  
دكتور محمد عمارة - طبعة  
بيروت سنة ١٩٧٢ م والقاهرة سنة  
١٩٩٣ م.
- دكتور محمد عمارة : [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة  
٢٠٠٦ م.
- [فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية  
والصوفية] طبعة دار السلام -  
القاهرة سنة ١٤٣٠ هـ سنة  
٢٠٠٩ م.

دوريات :

مجلة [الشهاب] - الجزائر.



# الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة .....	٣
١ - الحارث المحاسبى	
(١٧ - ٥٨)	
* نصوص فى مقام العقل عند الحارث المحاسبى .....	١٩
- باب ماهية العقل وحقيقة معناه .....	١٩
- مسألة فى العقل .....	٥٠
- فى العقل .....	٥٧
٢ - حجة الإسلام أبو حامد الغزالى	
(٥٩ - ١٠١)	
* نصوص فى مقام العقل عند حجة الإسلام الغزالى .....	٦٢
- [مكانة العقل] .....	٦٢
- دقيقة .....	٦٥
- فى السببية .....	٧٤
- فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه .....	٧٨
.. بيان شرف العقل .....	٧٨
.. بيان حقيقة العقل وأقسامه .....	٨٦
.. بيان تفاوت النفوس فى العقل .....	٩٥
المصادر والمراجع .....	١٠٢
الفهرس .....	١٠٤